الجمهورية العراقية - وزارة الإعلام

المتنبي
فارس الفكر العربي

عبد المجيد لطفي

منشورات وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية

صدر بمناسبة مهرجان المتنبي
بغـداد ـ تشرين الثاني ١٩٧٧

عبد المجيد لطفي

المتنبي
فارس الفكر العربي

مع شعر المتنبي

ان ما هو غير طبيعي بالنسبة الى شعر المتنبي الا يعجب به شاعر وأديب على امتداد الالف سنة الماضية فما من شاعر أو مفكر لم يعجب بهذا الشعر الفخم مثل قلعة لا تبلى ، في مرحلة من الحياة .

حتى الذين تصدوا للمتنبي بالنقد والجفاء في حياته وبعد موته كانوا يحتفظون في زاوية صافية من قلوبهم له باعجاب خاص ، بل ان عددا كبيرا من الشعراء والنقاد اعجبوا بالمتنبي مرارا واظهروا له القلى والتعالي عليه مرارا مذبذبين بين لحظات الاعجاب الخارقة بالشعر الفكري الخارق الرصين ولحظات الاعجاب بالذات للبروز الى الضوء عن طريق الاحتكاك به بقسوة .

ان المتنبي بهذه الصفة ، بهذه الصحبة الطويلة مع الادباء والشعراء في كل جيل لابد ان يكون ظاهرة فريدة لتكون له كل هذه القوة في تجاوز الاخرين والمسيرة الى امام عبر تاريخ متطور وطويل للامة العربية في عهد الجمل والصحراء وبداوة الفكر واوليات الجدل العقلي الى آخر ذروات الفكر المعاصر قوميا وعالميا ...

وما من شك في ان المتنبي هو كذلك ، ظاهرة لا تتكرر في اداب الأمم الا نادرا وخلال قرون فهذا التفوق في شعر المتنبي كان يبدو طبيعيا لوظهر المتنبي في امة اخرى غير الأمة العربية وبين اقوام من غير العرب اما ان يظهر وبهذه القوة المتميزة في صميم الأمة العربية اي في وطن ولود للشعر منذ الجاهلية العريضة الى افاق هذه الحضارة المعاصرة والشعر في القمة من وجدانات هذه الأمة ، فهو الذي يدعو الى الاكبار حقا وعدم تخطي هذه الشاعرية الفياضة ... ولعل من الظلم للمتنبي ان اقول العبارة التي وقعت

عفويا وهي « عدم تخطي هذه الشاعرية الفياضة » ذلك ان شعر المتنبي هو الذي كان السباق ليس في تخطي معاصريه حسب ولا سابقيه او لاحقيه بل تخطي الازمنة بقرون ، متجاوزا الجمود والتخلف والضحالة .

وعندي ان لهذا التفوق قوة كامنة في اصالة المتنبي ، ليست العبقرية وحدها هي التي تجعل لشعر المتنبي هذه النكهة التي ما قل شذاها في حقبة من الزمن ...

ان الاصالة انما هي قوة التعبير بصدق عن خلجات النفس الانسانية ولكن ليس بالانانية المفرطة والابتعاد عن الظواهر الاجتماعية وملابسات الظروف المعقدة التي تجعل المفارقات امام الشاعر الموهوب اكثر وضوحا واخيرا ان الاصالة في شعر المتنبي – مع وجوب عدم اغفال العبقرية الشخصية – ان الاصالة فيه ايضا لم تكن عفوية ، اي مجرد هبة طبيعية ذات حساسية تثير حول الشاعر عجاجة من قوة التصدي لما لا يتصدى له الاخرون ... بل ان اصالة المتنبي في شعره تشمخ اعلى فاعلى بالجهد والذكاء اللماح وبصفات الصفاء البدوي في الاستشفاف والانفة ... ومع ان معظم ديوان المتنبي شعر مناسبات ، شعر مديح ورثاء وهجاء الا انه يتسم بشمولية واعية للمرحلة والشخص والمجتمع من خلال الحكم على الممدوح او المقدوح ...

ولما كانت الاماديح صناعة فلابد ان تخضع في تجويدها للمبالغات التي تجرد جمال الحقيقة احيانا من البريق الطبيعي للأشياء . غير ان المتنبي في شعره مجوّد من نوع آخر ... فحتى في تلك الأيام المبكرة للعلم والفلسفة وعدم تشبعها على نطاق كبير في العقل العربي – نجد ان المتنبي قد تجاوز عصره الى عصور قابلة ... لقد امسك المتنبي بحقائق الحياة فوقع على الحكمة . لم يخترعها كلها اقتبس ودرس وتعلم بالممارسة والسفر والتجريب ان الحكمة كـ « حكم » شيء تطبيقي لفقه الحياة من خلال كلمات ذات وزن او بدون وزن . والمتنبي عرف لذة الحكمة لذلك نراه مجردا في اظهارها باطار لا يخبو له أوار في استثارة الفكر او الوجدان

فحتى مكرور المتنبي في الحكمة شيء بالغ الروعة ذلك لأن الاطار للصورة المكرورة يأخذ ـ كلوحة جزءا هاما من اهتمامه ، فتأتي المقولة المكرورة جديدة باطرها المتعددة ••• وعندي ان المتنبي كان في حاجة ماسة للحكمة في شعره • ذلك لانه وجد فيها السند المنطقي للهبوط الى اعماق التأثير وصبه في وجدان المتلقي ••• ان الحكمة التي عرف بها المتنبي اكثر من جميع الشعراء حتى اولئك الذين عرفوا بالحكمة والكهانة من عقلاء العرب انما كان ضرورة آساسا في بنائه الشعري المتدفق كالسيل ولكي يفسح السيل له طريقا لابد أن يدوي حين يصادم الصخور وكان دوي المتنبي دوي الحكمة •• وثمة سبب آخر وراء انهماك المتنبي بترداد الحكمة لانه يعزز بها حكما ينزله هو كقصاص في الهجاء لابد ان يكون هناك ما يبرره ليبعد عن نفسه التجني لان الحكمة حين تسود فلأنها تقرر واقعة أو ظاهرة اجتماعية يراد لها التقويم بالموعظة ولان للحكمة المنشورة سابقة واثرا في اذهان الناس فأن قول المتنبي للشعر وترويض الحكمة في اطاره فلسفيا وبيانيا يعطي القصيدة قوة نفاذة ما دامت الحكمة فكرة نقدية متداولة ••• ولكن في الحقيقة من خلال هذه البحور الزاخرة لشعره نجد الكثير من الحكم الصائبة اللاذعة او الهازلة هي من صنعه تماما لا يتسقطها او يختارها من تجارب الاخرين انما يستمدها من ملامسة الواقع اليومي المتناقض بشكل ملحمي •••

لقد هدف المتنبي في قصائده الى ايصال ما هو عام وضروري ومستمد من المجتمع المرحلي للموصوف، او الممدوح مع سرب من الابيات الاخرى من المديح في الممدوح ولكن دهاء المتنبي وتمرسه الفكري يعطيه لوذعية يكاد ينفرد بها ، حين يضع في القصيدة المطولة بين زمرة واخرى حكمة رائعة تغطي على صفات الممدوح او الممتدح لتظل الحكمة وحدها حدا عاما للناس كلهم ••• وقد ترفع الحكمة عند المتنبي ، ترفع الممدوح درجات عدة او تهبط بالمذموم درجات عدة ولكنها خلال ذلك لا تفقد شموليتها فأن تداول الناس عبر الاجيال لشعر المتنبي كان للمجابهة عن طريق

الاستشهاد والامثولة •• فحين يرى المرء جاهلا يسرد عليه ما لا يفهم سرعان ما يتذكر المتنبي في واقعة مماثلة قبل مئات من السنين •

« ومن البلية عــذل من لا يرعوي

عن غيه وخطــاب من لا يفهــم »

وازاء ذلك يصعد محلقا لمكافأة نفسه بالذات ، بالثناء عليها للموازنة العادلة بين منزلته في نفسه هو من تضطره الظــروف لمديحه ••• وكثــيرا ما استبدت لجاجة الحزن بالمتنبي فضاق بمايقول وهو يعرف ان قدح الممدوح اقل مما يقول الف مرة حتى يتمنى الموت لنفسه ، خلاصا من ذل يجهر بــه فيطفح على السطح من خلال كل ملامح الكبرياء ، فهو حين يخاطب كافــورا يبدأ بوصف نفسه اولا ، بأمنيته هو للموت كخلاص من عبء لا يتــزحزح بسواه

« كفى بك دآءا ان ترى المــوت شــافيا

وحســب المنايــا ان يكــن امانيــا »

وكانت المنية عندما نظم تلك القصيدة الرائعة جدا واحدة من امنياته الملحة ، فجعل المنايا اماني عزيزة وهل يتمناها غير عزيز النفس في هوان يفرضه مقتضى الحال •••

واذ يلمح سحنات كالحة من الزور والزيف في مجتمع يدب نحو فواصل طبقية بادية الحدود عن طريق الكسب بكل وسائل الغش والزلفى والخداع يتصدى لذلك بالاباء ، بالفطرة البدوية السليمة التي ظلت في ركابه آنــاء الليل واطراف النهار فهو يشتم المزيفين غير الصادقين بجمال الصدق لديه حين يقول

« ومن هوى كل من ليســت مموهــةً

تركت لون مشــيبي غــير مخضــوب »

فهو يجابه بهذا البيت بترفع حاد بما يملك ، بالبقاء على حقيقة الطبيعة كما هي ، دون تخضيب للشعر كما كان يفعــل من تجاوزه في العمــر لأن

الصدق الذي يعتنق كـان يدرأ عنـه الرجـوع الى الزيـف في التطريـة والخضاب ...

ان لهجة الصدق هي ثانية صفات الشعر في المتنبي او عنده بعامة ،وقوة الصدق انما تتجلى بالحرارة لان من لا يؤمن بما يقول لا يستطيع ان يملأ شعره بهذا الدفء المريح الاخاذ الذي نجده في شعر المتنبي وتأتي الحجـة المضادة ــ اين هو الصدق في اماديحه لمن لا يستحق بعض ما يقوله فيهم ؟!.

ولن يكون الجواب عسيرا على من عاش مع شعر المتنبي وفي عصره . وباعتقادي ان المتنبي قال الشعر صادقا حارا وشفافا وفي مدار الحكمـة في اشخاص لا يستحقون منه بيتا واحدا ... اذاً لماذا فعل ذلك ؟ اذا نحينا مسألة التعيش عن طريق الشعر الذي كان نـوعا من صـحافة ذلك العصر وجريدته الجوالة لوقفنا امام حجة اكثر ادهاشا لنا ، تلك هـي ان المتنبـي يصنع من قصيدة المديح مأثرة بارزةللممدوح بكلحرارة وهو يدرك فياعماقه انه يصنع النقيض ليكشفه القاريء من خلال تطبيق القصـيدة على واقـع الممدوح وخلاله ... فالصدق في القصيدة عنده بناء راسخ لحقيقة جديـرة بالاحترام ، فقصائد المتنبي المرسلة كاسراب اليمام في الآفاق الصاحية يجب واقعيا .. ومنطقيا ان تحط في كنف من تنطبق عليه تلك الاماديح الصادقة ...

ان الجهلة من الاثرياء والولاة والقادة المغرورين كانوا يتقبلون مديح المتنبي ويظنون كلماته خاصة بهم ولغرورهم يجدون في انفسهم ما ليس لهم منه شيء ... وهكذا كانوا يدفعون الثمن المجـزي للمتنبـي عن رضى وابتهاج وغرور في حين تمشي القصيدة مع الركبان تبحث عمن تنطبق عليه.

واذا كان بعضهم يرى ان المتنبي اسرف في مدح كافور الاخشيدي في مصر وسبه بعد ذلك باقدح السباب فيجب ان تقوّم النظرة بدراسة جديدة لما وراء الشعر المادح المتوهج بالجمال البياني : فهل هو مدح لكافور حين يقـول :

« ابا المسك هل في الكأس شيء اناله ؟

فأني اغني منذ حين وتشرب » ..!

فهو يريد ان يقول بلهجة تنم عن النفور من المفارقات ــ بأي حق يا كافور ، اغني وتشرب وقد كان الأمر كذلك ...

كان كافور سيفا يمانيا ورمحا هندوانيا للقمع والاستئثار ... وكان المتنبي سيد الحكمة الجوالة والعبرة المتألقه تضيء درب السادرين في ليلهم ... وانطوى السيف ، وذل الرمح وانثلم .. انتهى كافور وبقيت كلمات المتنبي فيه فصارت حتى الاهاجى اماديح ما دامت تذكر الرجل بمتناقضاته فما من امريء بلا نقائض . ما من بشر بلا خطيئة او عيب او نقص ولكن من يمدح يتغاضى عن غير الشرف او غير المديح من الخصال ويأخذ ماهو الأهم والاحب والأجمل من الخصال ... لذلك لا يمكن ان تتهم المتنبي حتى وفق منطق العصر والكرامة ووسائل العيش المختلفة الميسرة ، لا يمكن ان نتهمه بالتناقض في المدح والذم . ان كل ما فعل المتنبي وهو ما نفعله جميعا على اختلاف مستوياتنا ، ان نسدح حين نعجب ونحب ونقدح حين نكره ونصد وبذلك تخصص المتنبي بطريقته الفريدة لاكثاره منها ، جمع مافي الممدوح من خصال وسجايا وسمو مكانة ومنزلة عند المدح اى في ساعة الرضى ، والذم باظهار ما هناك من عيوب ودنايا وضعة عند القدح وقاريء شعر المتنبي يرى سجايا ممدوحية العالية ودناءتهم ايضا او جشعهم ولؤم طويتهم حين يضع قصيدة المديح الى جانب قصيدة الهجاء للشخص نفسه فيكون كل ما فعل المتنبي أنه افرد للسجايا الطيبة سجلا وللأخطاء والدنايا سجلا آخر وكأنه يعمل بما نعمل به اليوم حين نضع الخطوط البيانية ، ارتفاعا وهبوطا بالصادر والوارد ...

ومع ان حياة المتنبي بحد ذاتها مغامرة طويلة ومتصلة والمغامرون لا يكترثون بالماضي حتى بألمع ما تركوا فيه فأن شاعرية المتنبي تهتز دائما بذكرياته ... في كثير من الاحيان تنتهي القصيدة في الممدوح ، يأخذ منها حصته ويجزى عليها وينتهي الامر بنشوة مؤقتة متبادلة برضى الممدوح عن نفسه وبنيل الشاعر مكافأة على ما صنع ... ثم يأتي الدور الشمولي للعامة ، للناس ، للحياة فأنا في هذه اللحظة لا اعرف من الذي مدحه المتنبي بقصيدته التي يرفرف حولي هذا البيت منها :

« ولىّ الشبابُ وهذا الشـيب يطرده

« يفدى الطريدة ، ذاك الطارد العجل ..!

فهذه الصورة من الجمال الغابر والحنين المدثر بعاطفة الوفاء للماضي، للشباب يركض بعيدا عنه يطارده الشـيب بغير ما وقـار ليقضـى عليه أو يقبض على مقتل منه كما يفعل كلب العيد ...

« يفدي الطريدة ذاك الطارد العجل » !

والطريدة شباب هارب لن يعود ما دام الشيب في ملاحقة لأبعاده اكثر فأكثر.

★ ★ ★

وارى وانا في صدد كتابة شيء جديد عن المتنبي الاّ ابريء نفسي مما وقع فيه كثير من خصومه ومن محبيه وليس هناك من شهر خصـومه مع المتنبي في شعره لم يكن صديقا وحبيبا لهذا الشعر وللشاعر بالذات ولكني اقول ـ انني في بعض ما قلت عنه ولا يزال ما قلت عنه او فيه صحيحا كان تحت تأثير مقاييس معاصرة لم تكن في زمنـه ـ لقـد اردت منه شـعرا ثوريا مهاجما لفحولة شعره وقوته ولانه لم يفعل ذلك بنطاق مقبول فلقـد خيلّ اليّ ان الرجل الكبـير كان بالضـرورة لين العريكـة مسـالما بل متجاوزا اخطاء الظلم والجبروت بمدحه بعض السفاكين والمستبدين بحياة الناس ... ولقد حز في نفسي ، ساعة الغضب والمقارنة ان يكون عمـلاق مديد بارتفاع النخل جوابة يحمل تجارة من كلام يبيعه لمقصـود لغاية هي الحصول على الجائزة ، اى بيع البضاعة والعودة بالمال الوافر .. وما دمنا قد بلغنا قضية المال فكثيرا ما تساءلت : كيف عاش المتنبي ، مستوى حياته اليومية ؟.. بيته في الكوفة ؟.. حالة اسرته في رزقه !.

ومن يلقي نظرة جادة مدروسة على ديوان المتنبي يعتقد ان عائد تلك القصائد الجوالة عبر الجزيرة كان على سعة من العيش ، موفـور المـال ، مكفول المؤونة .. وبصدد انه كان مكفول المؤونة فيجب منطقيا ان يكون كذلك فلابد ان الشيء الكثير من الهدايا كانت تصل الـى داره من غـلال الارض ونسيج المناسج وهدايا من دمقس وخيل وفاكهة استرضاءا للشاعر

والحظوة لديه على امل قصيدة تقال في المهدي تسير مسرى الركبان بل في بعض شعره ما يدل على انه كان يستقبل ما يرسل اليه من عينيات وغلال وحلوى ، يستقبل ذلك بالرضى ويعيد بعض الاوعية التي تحمل الهدايا مع ابيات سريعة يقولها احيانا واقفا وخلال تفريغ حمولة الهدايا ، اما المال فلا أدري اذا كان موفورا لديه مع أنه يجب ان يكون كذلك . والسؤال الذي كان يرد عليّ بتساؤل آخر هو — اذا كان المتنبي على سعة من العيش وله موفور من المال فلماذا لم يكف عن المضي في كيل الاماديح ؟ ... لماذا لم يتوقف يوما عن قول الشعر في ناس من جيله يقول فيهم ساخرا ان لهم عقولا صغيرة وان كانت لهم جثث عظام ! ... أو ضخام !

وحين امعن الفكر اجد لذلك جوابين :—

١ — ان المتنبي لم يكن يحصل على مال كثير يترسب منه فائض يغنيه عن ترك الصناعة الشعرية .

٢ — ان بعض الحكام والامراء كانوا يسألونه بانفسهم ان يقول فيهم شعرا فاذا تأخر في سنة او موسم بعثوا اليه بالرسل والهدايا فلا يجد ازاء ذلك الا ان يعود ... وهكذا اخذت الامور برقاب بعض فلم يجب الا ان يمضي لطيته دون تردد ما دام الطلب يرد اليه بالحاج ... غير أن ما يجب ان يعاد النظر فيه هو مدى ثرائه ؟ هل كان على حظ طيبّ منه !

مع انه بالضرورة ، يجب ان يكون على سعة من العيش ولكن ليس الى حد الثراء ، ذلك ان بعض ممدوحيه لم يكونوا أجوادا معه ، اما انهم يدفعون القليل واما انهم يعدون ولا يعطون واحيانا يكتفون بأن يرفعوا من مقامه في مجالسهم وكان هذا ما يطربه ويرضيه اقناعا لكبريائه انه بلغ مصافهم وجلس في اعلى المراتب من مجالسهم ... لقد شكا اكثر من مرة من كذب واعديه بالعطاء ... من ذلك قوله بمرارة هذا الشطر من داليته :

« انا الغني واموالي المواعيد »

والسخرية واضحة حد المرارة اللاذعة اذ كيف يمكن للمرء ان يكون غنيا وكل مالديه مواعيد بالعطاء والمكافأة !؟ . وما دمنا بصدد وضع المتنبي

المالي وحياة العسر او اليسر لديه فيجب ان نقرر واقعا كثيرا ما يبدو في شعره ، ذلك انه هو نفسه كان تواقا للثراء والنعمة العريضة ولأن طريق الثراء كان يتطلب انواعا من المسالك مذلة لكرامة فأنه لأمر ما ترفع عن اتباع تلك المسالك مع ان الحرصاء على جمع المال لا يبالون بالوسائل ، رفعة او ضعة ...

ويخيل الي احيانا ان المتنبي كان يراقب بعض السراة والاغنياء مراقبة المحروم الغاضب فاذا امتلأ الكيل فاض لعنة وهجاء من خلال المدح ، يجرهما على العصر كله المفتون بالمال المتناسي لجميل الخلال ... وهذا الأمر واضح تماما في شعره ،

ولكن المتنبي العظيم الذي كان يترفع عن سلوك الآخرين في جمع المال عن طرق ما ارفعه عن سلوكها ، كان المتنبي مع ذلك يقول المديح مرارا في كبراء وامراء جمعوا أموالهم باكثر الوسائل ظلما وجورا واستهتارا بالقيم العربية فينال جائزته من اموال جمعت بطرق يأبى هو ان يسلكها للحصول عليها ولكنه لا يترفع عن رفضها ممن جمعت من قبله بتلك الوسائل .

ان كل ما يمكن ان يقف الى جانب المتنبي في هذا هو « المقايضة او البيع » فأن المتنبي لم يكن ليتقاضى عطاءا دون دفع بالمقابل فلقد كان يرفع القصيدة وهي يومئذ وسيلة العيش للعديد من الشعراء ، ليأخذ جزاءها نقدا او عينا

وفي حومة المال عند المتنبي ، والاستفاضة هذه ضرورية ـ لتقرير دواعيه في حدة الهجاء ، يجب ان نقول ـ انه كان على اشتهاء مفتوح للثراء ولكنه لم يدركه فبقي في حدود الطبقة الوسطى او دون ذلك وسندي في هذا ، ان الحاجة هي التي كانت تحمله على المغامرة والسفر والاتجاه بحمولة شعره الى اقاصي ما تصل اليه الاسفار فلقد ذهب في رحلته الأخيرة الى بلاد فارس مع ابنه المحسّد فمدح هناك السادة والاغنياء والامراء من عرب وغير عرب وعاد سعيدا بما جمع ...

ويبدو لي ان ما جمع كان غالبا عليه ذاد عنه حتى قتل فالرواية الادنى

الى العقل أن المتنبي قد حوصر من قبل قاطعي طرق ••• وحيث تصدى له فرسان شقاة فانما كان ذاك كما يقع في تلك البقعة بالذات مرارا في قصد السلب ••• ولو ان المتنبي تخلى عن مال جاء به من فارس لما انتهت حياته بتلك الميتة الأليمة • ربما ان ذلك المال الوافر كان كل امله في الحياة ، كان اكثر ما يطمح اليه او ناله في صفقات من قصائده وهكذا وجب ان يذود عن ذلك حتى سقط قتيلا هو وابنه المحسّد ومن كان معه من خدم او اعوان •••

وما من شك لدي ـ وما اكثر الادلة في شعره ـ انه مرّ في طفولته وصباه بالبؤس في اوسع مداه ، فذاق مرارة الحرمان والفقر وذل الطبقة التي كان فيها ••• ولانه عبر ممارسته لحياة البؤس ، عرف قيمة المال مع حرمانه منه فقد كبرت في نفسه خصلتان هما ـ حب المال ، والترفع عن الوسائل الدنيئة وغير الاخلاقية للحصول عليه وطوال ما عاش وقال الشعر كان يحوّم حول هاتين ، يريد المال لانه ذاق لوعة الفقر والمسغبة ، ويترفع عن الوصول الى كثير وبما يتوصل اليه المكثرون منه •••

والكرامة عند المتنبي متأتية من الفقر الذي عاشه فلقد خلفت ظروف الفقر او الضيق التي عاشها لديه خصلة قوية نزلت الى اعمق اعماق نفسه الكبيرة ، ذلك كما لدى الكثيرين ـ ان المتنبي خلال فقره وحرمانه وخلال بؤسه ازاء ثراء الاخرين، كره الاغنياء ومثالبهم الاثرياء وخلال تلك الكراهية رأى مثالبهم وتعرف على وسائل جمعهم للمال وانتزاعه من الفقراء والمجهدين طوال النهار بالكدح من اجل لقمة هزيلة ••• فكره المال واحبه معا كره طرق الوصول اليه واحبه لأن من امتازوا عليه في الصبا انما امتازوا عليه بما كان لدى ذويهم من جاه او مال •••

وعلى مسيل هذا المجرى ، من منبع حياته في الكوفة الى مصبها في موقع القتل عاشت معه هاتان الخصلتان فجاءت كرامته ، عداءا قديما للمال لدى اغنياء زمنه في الكوفة مع طلبه لحاجة الحياة الى ذلك •••

ولست في هذه الدراسة وهي من نوع جديد حتى شخصي الى حد

كبير لتحقيق نسبه ، اصله . هل هو من سلالة علوية حقا ، هل هو ابن سقاء ماء في مسجد الكوفة يعين بجهده من كان يكفل له العيش ، والد او جد ، او رجل احبه وتبناه ... ولا اريد ان ابحث هل هو كندي حقا ام اكتسب النسبة لسكناه في حي لكندة في الكوفة ذلك ان دراستي للمتنبي أحادية الجانب او أحادية المصدر اي ان كل مصدري هو ديوان شعره الذي تعرفت عليه قبل اربعين سنة ... وعرفته « في القمة والحضيض » ومثل هذه الدراسة تأتي باشياء اصيلة لانها تنتزع من صلب النص الذي لا يرقى اليه الشك فالرواة يختلفون والروايات تتجزء تنقص او تزيد ولكن النصوص تبقى محتفظة بصدق يومها وواقع الحال السائدة يوم ظهورها

ولقد اخترت لهذا ان اتخيل امامي المتنبي ، واقفا بشموخ يصغي الى حكم جديد ، مكرور لواقعيته المنطقية او مخالف لما جرى عليه حكم الناس فيه وفصول هذه الدراسة ، لقاءات ، اى لقاء مع قصيدة اختارها ، وليس شرطا ان يكون الاختيار من افضل مافي الديوان فأن التنويع ضرورة اساس في مثل هذه الدراسة ... وحين اسمح لنفسي بتسميتها بالدراسة ـ دون مراجع ومؤثرات سابقة في مصادر متراكمة خلال الف عام من الجدل في كل صغيرة او كبيرة لدى المتنبي ـ حين اسمح لنفسي بتسمية هذا الذي اكتب ـ بالدراسة ـ وليس بالخواطر فانني اقول ذلك لأنني استقي مادتي من اصدق المصادر ، من النصوص ...

وبعد فهذا ما وجدت ان اسجله في هذه المقدمة قبل ان ادخل مع المتنبي العظيم في اول لقاء .

اللقاء الاول

سلاما يا ابا الطيب ••• يا أحمد

فأنت عال وعملاق وشامخ مثل النخل السامق في شعرك ولقد خيل الي طويلا انك مارد القامة لان شعرك بعلوه جعلني اعتقد انك عملاق من عمالقة جديس فاذا بك مثلي ومثل بقية الناس•غير عملاق وغير قميء •••

ان وجهك مكفهر دائما واذ تبتسم فلا تستطيع ان تطرد حزنا يرفرف حول عينيك •••

محروم !••

ولأنني انا ايضا عشت الحرمان فأنني لا انكر هذا عليك •••

مرحبا يا ابا الطيب ••• المتنبي او النبي في الادب والفكر والحياة بنظرة المستشف البليغ للواقع والمستقبل •••

كن لطيفا معي ، كنت صديقا لك طوال اربعين سنة •• انت معي في اوقات النهار مثلا يضرب ، بمجنحة من بيت تصيب مغرورا بصفعة •••

وألى نهاية هذا اللقاء ارجو ان انال رضاك ، انت الذي ارضيت واغضبت ، شهدت قلق التطور في عصرك وكفاح الناس في ضجة مطامع القادرين على الاثراء على حسابهم كما هي الحال في كل زمان ومكان •••

يجب في البداية الا أعيب عليك وجهتك ، حياتك في شعرك ••• ليس هذا من حقي فانا اعيش اواخر القرن العشرين وبيني وبينك عشرة قرون شهدت فيها البشرية ماتنوء به كتب التاريخ •••

ومع انك ، ويا لطول بالك وصبرك ــ ومع انك عشت من مال يدره

الشعر ، مداحا في قصائد المدح لمن تقصد وترى فيه طيب العطاء فلم تكن في ضعة كالاخرين ...

المداحون في القصائد يتوارون بشخصياتهم ، ينسبون كل شيء لمدوحيهم ... لا نجد صورهم هم ، هؤلاء الشعراء أشباح .. شعراء ينحنون الى الاذقان بأصواتهم المكرسة لمدوحيهم ...

انت تختلف يا ابا الطيب ، انت شيء آخر وهذا تقرير معاصر وجاد عنك ، ان قامتك في كل قصائدك اطول من قامة من سقت تلك القصائد اليهم ... فأنت تتوزع المديح وحصتك في المقدمة ، مطلع القصيدة وقلبها ونهايتها لك ، لنفسك مثل صياد ماهر يختار من صيده مايريد ... لهذا فأنت شيء آخر تماما ، صورة وضاءة مع اكفهرارها لواقع كان بحاجة الى الاحتجاج عليه ولم يحتج عليه الا القليل ...

كانت طريقتك متباينة في الاحتجاج ، الشتم الجماعي للأذلاء ... التسخيف لمقولات بائسة تستقي من منابع الجور او الهوان ...

هذا انت ، ترى نفسك بحق اكبر من جميع من رفعت اماديحك اليهم ...

وجوّدت في الهجاء ، أيها اللسان الذرب . كان ذلك ميدان الفحولة لشعرك ... ان الهجاء غضب ، هجاء الافراد حكم شمولي على مدى مرحلة كاملة كنت انت من شهودها ...

ان الغضب جماع من رواسب تتفجّر في مقولة . والهجاء هو طريقة تلك الازمنة في الاحتجاج ...

الى الآن ـ اظن اننا على وفاق يا ابا الطيب ، ذلك اننا بعد الف سنة وقبله بدأ بعضنا يراك في مرآة نفسك ... ودون غلواء كانت لك طلعة جميلة ، طلعة رجل راضخ لبيئة متشددة ضد الفكر الناقد والادب الموجه ... ومع الرضوخ كان الاحتجاج في فورات ما اروعها ...

هذا كل ما اريد ان اقوله عنك ، انه تقرير واقعي يكاد الاجماع ينعقد عليه فدعنا في هذا الوقت الجميل ان تدخل في لقائنا الاول في واحدة من قصائدك . من حياتك ، من فكرك ! ..

منذ البداية قررت الا أتخير قصيدة معينة لا لأن قصائدك محلقة حسب بل لانني اردت من ذلك ان اتحدث دون استعداد وان اقيم الدراسة من خلال المراجعة معا لما بين يديّ ...

سلاما لك ، سلاما عليك يا احمد المتنبي ، فأنا دون قصد او تأشير افتح الصفحة ٤٤ من ديوانك وهو مؤلف لديّ من ٢٨٤ صفحة :

ها نحن الآن بالحسن الطالع في شهر ذي الحجة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة ... وانت في الكوفة ، تستيقظ على صوت رسول قادم اليك من بعيد دمعه رقعة بخط من احببت ، من سيف الدولة وهو في « ميافارقين » فماذا يريد منك هذا الرجل ؟..

امير تحته جيش عربي لجب ... ماذا ينقصه ذاهبا في حملة فتح او آيبا من حملة تأديب ... ماذا يريد منك الأمير ؟..

سيف الدولة يريدك ان تخف اليه من الكوفة عبر الصحراء لتصل حيث ينشب الصقر مخالبه بثبات حيث يقف . ويرجع الرسول ولكن ليس دون قصيدة دعنا نرى المستهل :

« فهمت الكتاب ، ابر الكتب
فسمعا لأمر ، امير العرب

وطوعا له وابتهاجا به
وان قصر الفعل عما وجب

وما عاقني غير خوف الوشاة
وان الوشايات طرق الكذب

فها نحن اولاء منذ البداية امام خصيصة بارزة من خصائصك — الحكمة — وانت ترسلها في البيت الثالث

« ان الوشايات طرق الكذب »

فالى ماذا تمهد يا ابا الطيب ؟.. من المبرر لك ان تفهم الكتاب — أبر الكتب — لان مرسله سيف الدولة ومن حقك ان تستجيب لدعوته بالطاعة وتبتهج لانه تفقدك وارسل موفدا اليك يحمل رسالة بخطه ، وربما في تلك اللحظة رأيت في ذلك شرفا عظيما وهو كذلك في تلك الأيام فلم يكن معروفا ان يستدعي الأمراء الشعراء اليهم لان الشعراء كانوا يقصدونهم في رحلات شاقة مع مالديهم من متاع شعري .. وحين يختلف الامر معك فأن ذلك يعني انك شاعر أمير ايضا ، فوق كل امارة ، فستذهب وتجلس الى جوار الامير الفارس الذي يحب الشعر كثيرا ويجل شعرك انت بخاصة ... فلماذا اجبرت الفارس المهاب بالقطيعة عنه الى ان استدعاك بنفسه بما تركت لديه من فراغ ...

ما اسهل ان اعرف ذلك ... تبتسم يا ابا الطيب ، قد تتحدى بالصمت ولكن أبتعادك عن سيف الدولة ابتعادا طال امده كان لسبب كشفته انت بنفسك ... فأنت « خائف » منه خوفا شديدا بحيث قادك ذلك الى الانقطاع عنه

فلماذا انت خائف من سيف الدولة ؟ الأنه امير رهيب السطوة عصبي المزاج سريع التقلب في الغضب ؟.. هذا وشيء آخر تتهمه به من طرف خفي ، ليس سيف الدولة غبيا ولكنك اذكى منه دون ريب حين تقول :

« وما عاقني غير « خوف » الوشاة
وان الوشايات طرق الكذب » !

فلقد خيل اليك ان الوشاة وانت في القمة من المنزلة لدى فارس بني حمدان ، خيل اليك ان هؤلاء الوشاة — وبطرق الكذب التي امتطوها اليه — قد اوغروا صدر الأمير عليك ...

هل قلت في غيابه ما يسيء اليه يا ابا الطيب ؟. اذا لـم تكـن قلت شيئا كهذا فما الذي يخيفك منه ؟

أمن الوشاة تخاف ؟..

تبتسم مرة اخرى ، واعرف انك كذلك ، خوفك من الوشاية بـك عنده قد منعك عنه ...

هذه حقيقة تفلت دون أدانة مباشرة منك تتهم فيهـا سيف الدولـة بالاستماع الى الوشاة الذين يركبون اليه طرق الكذب ... واذ تخاف من ذلك تشعر أن الأمير يسمع الوشاية ويصدقها ولو لم يكن الامر كذلك لما انقطعت عنه زمنا تفقدك فيه فبعث اليك يستدعيك اليه !..

ولكن لماذا انت بالذات يا ابا الطيب ؟ من بين هذا الرعيل الطويل من الشعراء لماذا يخصك سيف الدولة بالدعوة والرعاية من دونهم ...

أأنت ابلغهم ؟ . ما من شك في ذلك .

أأنت المعهم ؟.. بالتأكيد

ولكن الأمير الحمداني وهو في « ميافارقين » يريـدك انت بالذات ليس كشاعر حسب وشاهد لبطولاته وفتوحاته وهجماته ... ليس لانك الاجود في القول والاعمق قدرة في أعطاء الصورة كامل ابعادها ... بـل يريدك لشيء آخر يا ابا الطيب ...

ان سيف الدولة وهو على قائم سيفه يريد الشاعر « المؤرخ » ان سيف الدولة بحاجة قبل معاركه وبعدها الى مؤرخ صادق اللهجة وقـد اختارك انت لانه جربك ؟ ولكن في ماذا ؟.. في تاريخ وقائعه فلقد كنت ــ وللحزن هذا الحكم ليس معك ــ فلقد كنت « مؤرخا رسميا » لسيف الدولة أي مضللا دون ان اجد حجة ترد هـذه التهمة عنـك ... فأنت مؤرخ غير محايد ... مؤرخ لوقائع الحمداني سيف الدولـة ، تقبض له من خلال كل شيء على بطولة لا تغيب عنه هازما او مهزوما ...

لقد عرف سيف الدولة وهو على قائم سيفه انك توطد له ، ومعه خلفية اعلامية صلبة تجوب انحاء الجزيرة ... فاذا افلح في الحملة ـ أي حملة ـ صغت له تيجانا لا تصدأ من ذهب الشعر ولؤلؤ النظم وان انهزم ـ ولقد لحقت به الهزيمة اكثر من مرة ـ جاء دورك كمؤرخ رسمي يبرر الهزيمة ويحولها من تقهقر الى بطولة كبدت الهازم اضعاف ما كبدت المهزوم !...

فهذه مأثرة لك ، قدرتك على تحويل الهزيمة الى نصر بالملاعبة او بالتلاعب ، ليس على الالفاظ بل على الحقائق بالألفاظ فلطالما هونت على سيف الدولة انكساراته وهزائمه ... وهذا هو دورك كمؤرخ احتاج سيف الدولة اليه وما اسرع ما لبيت فوعدت مبتهجا بتلبية الدعوة لأبر الكتب ...

وماذا بعد ذلك ؟.. هذا حكم جديد لم يواجهك به اصدقاؤك او اعداؤك من قبل ... ان سيف الدولة كان في حاجة اليك اكثر من حاجتك اليه .

كان في وسعك ان تعتذر ، تظل ثقيل الوزن حيث انت ليخف في طلبك ... فما اكثر السراة تقول فيهم قصيدة تنال منهم جزاءا ولكن الداعي هذه المرة امير عربي ... وتبدأ نقطة الضعف البشري تتراءى امام عينيك ...

استدعاك الأمير ويجب ان تذهب ، تزداد بالذهاب شأنا كما تظن مع ان سيف الدولة هو الأحوج اليك ...

ولكن لماذا نقف عند ثلاثة ابيات حسب من هذه القصيدة ؟ .. تبتسم وربما بسخرية هذه المرة فلنمض معا مع القصيدة .

مضيت مع القصيدة ، قرأت منها ابياتا أخر ... جاء دورك في تعالى الكبرياء . وهذه عظمتك ... حين لا تنسى وزن نفسك في ميزان

الاخرين ، فأنت مثل سيف الدولة في الميزان ، واثقل منه ... ولكن كيف؟ لماذا ؟ لانك تقول :

« وما قلت للبدر انت اللجين
وما قلت للشمس انت الذهب »

فمن يتصف بهذه الصفة من الصدق يعطي الاشياء اكثر مما هي عليه ، لايقل مرتبة عن أصحاب المراتب الذين كثيرا ما لا يتصفون بالصدق في حين انت تتصف بها كما يفهم ذلك من شعرك فلا تقول للبدر انت اللجين ولا تقول للشمس انت الذهب ...

هل ضجرت حتى هذا اللقاء يا ابا الطيب ، برم بمن يتصدى لك ... كانوا كثارا وانت حي وقد ازدادوا مع عمرك الأدبي الطويل

ان في قصيدتك هذه أشياء هي من ابرز ما اتصفت به ـ الحكمة وقد لوحت بها عن الوشاة والاخرى ، هل اقولها ؟. حبك للمال او حاجتك اليه ، هذا مالا اعرفه الى جانب الخوف من سيف الدولة فأنت حين تمتدحه فانما لتقنع نفسك او لتأخذ منه موثقا الا" يصدق النقلة من الوشاه ما يحملون اليه عنك ... وبصراحة فانت تعرف ان سيف الدولة يستقبل الوشاة ، يصغي اليهم وربما يجزل لهم العطاء ... تلك خصيصة من خصائص المالكين الذين يتعودون ذلك لقهر خصومهم واحباط نواياهم حتى تتسع فيهم وتصبح جزءا من خلالهم ... فها انت تقول في خوف من اثر الوشاية عليك في شيء من التملق ... المعذرة اظن ان الكلمة غير متجنية فأنت تقول .

« وقد كان ينصرهم سمعه
وينصرني قلبه والحسب »

اي ان سيف الدولة كان ينصر الوشاة ضدك لديه ينصرهم « بسمعه » يصغي الى ما يقولون عن طريق الكذب ولكن سرعان ما « ينصرك » لديه قلبه وحسبه في عدم التنكر لك مع ثقل ما يحملون من

وشاية وفي هذا تمهيد لكي يكون كذلك اذا لم يكن كذلك فتكسب « قلبه وحسبه » حين يكسب من سبقك اليه من الوشاة « سمعه »

وكالعادة ، تهب فيك حدة القول فلا ترد رسول سيف الدولة خاليا « كما جاء هو خاليا » بل ترسل معه هذه القصيدة خفاقة باشياء كثيرة تظهر ملامحها مكشوفة تارة ، مخبوءة تارة اخرى .

والقصيدة كما غيرها فيه عامرة باجمل ما يستحق من ثناء فهو امير وملك ، بطل شجاع ، جواد يهب مما سلب !..

فهو « اخو الحرب يخدم مما سبى
قناه ويخلع مما سلب »

وانت بهذه تشير الى خلعة لم تصل مع الرسول مما سلب ، بل انك حين تخاف ألا تهزه الاشارة او توقظه على مطلبك في مال او خلعة ، تذكره بما اقوى من ذلك فتقول .

وان فارقتني أمطارُهُ !
فأكثر غدرانها ما نضب

فهل من اشارة ملحة اكثر من هذه بعد أن تجاوزت الامر فانتقلت من التلميح الى التوضيح فثمة صبابة من امطاره ما نضبت غدرانها بعد لكنها تنتظر امطارا !!

سلاما لك ، سلاما عليك ايها الشاعر الكبير كبر هذه اللغة العريضة المجيدة هل انت برم بي ، ضيّق الصدر بهذا الحديث !
اترى فيه من عوج او كذب او وشاية ؟ ...

فلقد انجزت القصيدة وحملها الرسول قبلك او حملتها معك اليه من الكوفة ، الأمر سيان . وانت منذ البداية تطالب بالثمن ... بالامطار التي لم تعد تهطل جديدا ولكن ما هطل منها مازالت غدرانها لم تنضب !.. ولكي لا تنضب يجب ان تمطر امطاره من جديد .

يا ابا الطيب ما اجمل النكهة ، في شعرك ، من معدتك ، فمن اعمق الاعماق المتوهجة تتدفق الكلمات حائرة الى ان تصنعها قلائد من نجوم ... ولكن هل كنت تعتقد يا ابا الطيب ، حين قلت كل تلك القصائد المجلجلة المرنانة : انك كنت اكبر من سيف الدولة ؟.. اعظم من الاخشيدي كافور ؟... نعم لانك كنت امير لغة ، فارس مجد للفكر العربي يجعل من ابعد الحقائق غورا حكمة لا تبلى في بيت واحد او شطر واحد ويمشى الى امام ...

والى لقاء جديد ثان .

★ ★ ★

اللقـــاء الثـانـى

ـ سلاما طيبا يا ابا الطيب • فها نحن اولا نلتقي مرة اخرى ، لقاءا كم يسعدني الآن ازعجك فيه •

ما اسعدني بلقياك •••
فأنت تقرأ الشعر جالسا
تقرأ الشعر فارسا •••
تقرأ الشعر هادرا وممارسا

لقد رأيتك مؤخرا في ميدان حلب ، تحتك جواد اشـقر او فـرس اشهب وعلى كتفك جبة سوداء فضفاضة ، وفوق رأسك عمة دمشقية رجلك في الركاب

ورأسك المرفوع كبرياءا رأس عقاب وانت تمر ، تستعرض ••• من في الركاب •••

وميدان حلب في مهرجان ، معقود المجد للفرسان وقد طوقوه على شكل قوس تصهل فيه خيل طالما شربت الغبار النقيع •••

لقد وقفت وتأملتك ، شاعرا في موكب للمجد اقامه فـارس بنـي حمدان ••• اقامه سيف الدولة في ميدان حلب وهذه المرة حومة للمجد ، حومة للأدب وانت فارس الكوكبة •••

ستقول ـ اوه ••• كان ذلك لمناسبة كنا في عيد الاضحى سـنة اثنتين واربعين وثلاثمائة ، وقد جئت لكي انشد لسـيف الدولة قصـيدة تهنئة بالعيد

كان سيف الدولة على فرسه بكل زينته وابهته ، من حوله الجند والمجد والقادة والآلاف المؤلفة من العيون شاخصة اليه

ـ ولم تترجل عن فرسك يا ابا الطيب •••

ـ كان سيف الدولة على فرسه

ـ واردت يا ابا الطيب ان تسمعه الشعر من عل

ـ نعم ••• كان سيف الدولة على فرسه ، وكنت على فرسك •••

ـ اذن جعلت نفسك في مصافه •••

وهكذا كان ، لقد هدر صوت المتنبي في ميدان حلب وهو على صهوة فرسه بواحدة من المع معلقات الشعر العربي ، معلقة ليس في عكاظ ولكن فوق كل لسان ••• ايرضيك هذا !•• فليس هذا تطبيلا لك فما زلنا في البداية فقد نختلف في قيمة شعرك في ميدان حلب • قد اجد فيه ثغرة ادخل فيها لساني ••• متين شعرك دون ريب ، هذا البناء المرصوص يهتز احيانا بتناقضاته الداخلية ، المحتوى القلق يهز داخل الوعاء وانت في عيد امام ملك معجب بنفسه ومدل وانت مثله ، فارس في ميدانك ومدل بدا تحمل ، سهمك ابعد مدى وسيفك المع في شموس الازمنة •••

وساد الصمت ••• بدأ صوتك يا ابا الطيب يهدر في ميدان حلب ، فارس بني حمدان ••• ميدان سيف الدولة :

« لكل امريء من دهره ما تعودا

وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

ومستكبر لم يعرف الله ساعة

رأى سيفه في كفه فتشهدا !

وها انتذا بعد أن تقتحم الميدان كالجواد الاصيل بصوتك الهادر تعود لتكشف امر صاحبك ، حلوا ، مرا رهيبا حبيبا جميلا نبيلا •

« هو البحر غص فيه اذا كان ساكنا

على الدر واحذره اذا كان مزبدا

فها نحن نرى سيف الدولة ، صورة للحلم حين يهدأ وصورة للبحر

الاجاج حين يثور ... وهذا ما يجعلك على صلة القربى ورفقة الادب تظل ترهبه لانك لا تعرف متى يزبد البحر اذ يغضب ...

وبعد ان تفرغ في هذه القصيدة مافي صدرك من حب لسيف الدولة ومن طمع بالجائزة يبدأ دورك كمؤرخ له في واحدة من كبريات معاركه... فأنت مؤرخ شاعر مرة اخرى وهذا مالم يتوفر في غيرك من الشعراء ... لقد اشبعت سيف الدولة من الثناء ... وها انت ذا تستعرض المعركة

« سريت الى جيحان من أرض امد
ثلاثا ، لقد ادناك ركض وابعدا
فولى ، واعطاك ابنه وجيوشه !
جميعا ولم يعط الجميع ليحمدا
عرضت له دون الحياة وطرفه
وابصر سيف الله منك مجرّدا
وما طلبت زرق الأسنة غيره
ولكن قسطنطين كان له الغدى
فأصبح يجتاب المسوح مخافة
وقد كان يجتاب الدلاص المسرّدا !
ويمشي به العكاز في الدير تائبا
وما كان يرضى مشي اشقر اجردا
وما تاب حتى غادر الكر وجهه
جريحا وخلى جفنه النقع ارمدا

فهذه اللوحة ليس للشعر بل للتاريخ وانت معه تشهد سير المعركة ... سير الملك الذي سلمّ للفاتح العربي الغلاب ولده وجنده ونجا بجلده ثم ذهب ليكفر عما اقترف في تكبره ، ذهب فترهب يدب على العكاز ...

فهذا انت اذن يا ابا الطيب ، ولهذا يريدك سيف الدولة ان تكون على مقربة منه ... شاعرا ، مؤرخا ، سندا وممجدا .

ومثلما كان سيف الدولة فارس المعركة كنت انت فارس البيان ، لقد اردت ان تجوّد حتى تساويه في المجد او تعلو مجده ... ماترجلت عن فرسك ، ما توجعت في ذلة المتوسل ... طلبت منه ما تراه حقا ، الجزاء لقاء عدل لا يزال الناس يجزون عليه ...

في هذه القصيدة من ثراء الفكر ما يذهل ، فكل حكمة هي صيغة فقهية او مقولة تبرر حكما ... واذا كانت حكمياتك تتناثر قلة في القصيدة الواحدة فأنها في هذه القصيدة تزدحم متوالية يلاحق بعضها ذيل بعض

« ومن يجعل الضرغام للصيد بازه
تصيده الضرغام فيما تصيدا ...
رأيتك محض الحلم في محض قدره
ولو شئت كان الحلم منك المهندا
وما قتل الاحرار كالعفو عنهم
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا ! ..
اذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وان انت اكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضر كوضع السيف في موضع الندى !
ولكن تفوق الناس رأيا « وحكمة »
كما فقتهم حالا ونفسا ومحتدا
يدق على الافكار ما انت فاعل
فيترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا

فكل هذا هو لسيف الدولة ... لقد اشبعته ماهو بحاجة اليه وجاء دورك ، جاءت المعادلة الاخلاقية في نظرك بين سيف الدولة والمتنبي ... بين فارس حلب وفارس الكوفة ... فلتعط نفسك يا ابا الطيب ما تستحق ... وانت اعرف بقدر نفسك . وها انتذا تفعل ...

ما تزال على فرسك في ميدان حلب في مواجهة كاملة لوجه فارسها سيف الدولة ••• ومن حوله المجد والجند ومن حولك هالة الفكـر في بواكير النضج على نار حامية فلتطلب من سيف الدولة ما تريد فلقد اعطيته ما اراد وزدت على ما يستحق وانت تعرف ذلك •••

فماذا تطلب الآن يا ابا الطيب من فارس بني حمدان في ميدانـه في حلب !•••

ان طلبك حاد وفيه نبرة آمره ، ليس للضـعف مكـان في الطلب ، لا مخافة من بأس البحر حين يثور

« أزل حسـد الحسـاد عنـي بكبتهـم
فـأنت الـذي صيرتهـم لـي حسـدا

افهذا حسب ما تطلب !

لا بالطبع ، ان هو الا تمهيد للزهو بما لديك بعد ان زها الفـارس بما لديه

« اذا شدّ زندي حسن رأيك فيهم

فماذا يصير عليه الأمر يا ابا الطيب اذا ما شد سيف الدولة زنـدك بحسن الرأي ؟•• ماذا يحصل عليه سيف الدولة لو انه فعل ما تطلب آمرا غير راج او متوسل ؟••

اذا فعل ذلك كما تقول انت في عجز البيت

« ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا »

اهكذا اذن • بهذه الكفاءة المستضافة الى قوة سيف الدولة ، بشد زندك برأية يفلق هام اعدائه بسيف مغمد •••

وما زال الدور لك ، انت صنوه في المجـد ولابد ان ذلك العسـكر الكبير في ميدان حلب تطلب منك موقفا استثنائيا وها انتـذا في حـال الاستثناء هذه كما انت في الكوفة وفي مصر وفي فارس ••• في كل مكان

« وما انا ... » ما انت يا ابا الطيب ؟ لقد بدأت تهدد سيف الدولة بما انت فماذا يمكن ان تكون

« وما انا الاّ سمهري حملته
فزيّن معروضا وراع مسددا
وما الدهر الا من رواة قصائدي
اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا ...
فسار به من لا يسير مشمرا
وغنى به من لا يغني مغردا

وليس لأحد ان يطعن في هذا ، ان اشد الناس خصومة لك يا ابا الطيب لا ينكر هذا عليك

والآن بعد هذا التحليق ، بعد مقدمة الاطراء وتبادل الثناء للنفس احاديا والاكتفاء بمجد الكلمات تطل رغبتك القديمة في الجزاء ... تطالب به في ميدان حلب على مشهد من عشرين الف فارس ويزيدون ... وفي يوم عيد ... لا تترك لسيف الدولة لحظة يفكر فيها كيف يجزيك وبماذا يرد لك ما اعطيته ... تفاجئه بالطلب ولابد ان سيف الدولة قد اندهش فهو على فرسه بحسامه وعمته وطيلسان فروسيته وانت تطالبه بالمال عن قصيدة لم يضعها في جيبه او خرجه بعد

« اجزني اذا انشدتُ شعرا فانما
بشعري اتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فانني
انا الطائر المحكي والاخر الصدى !

وماذا بعد ؟...

انت اذن تريد أن تصبح وحدك شاعر بلاطه تختص وحدك بالشعر فيخصك وحدك بالجزاء ، في لهفة على الكسب كشاعر محلق يمضي الى امام فيقلده المادحون فيجب أن يكون الجزاء للأصيل المنيع ... والاجازة بالقول له وحده !

ولكن لماذا انت وحدك يا ابا الطيب ؟.. وكيف يعيش بقية الشعراء من الدرجة الأقل ؟..

ألأنك سباق اليه في كل طلب وعند كل معترك ؟ ربما ... ولكن من حق الآخرين ان يرفعوا اليه قصائدهم افلم ترفع انت قصائدك الى سواه ؟ ... بلى دون شك اذن لابد من ترضية لأمير بني حمدان وملك حلب

« تركت السرى خلفي لمن ؟ ... »

نعم ، يا ابا الطيب لمن تركت السرى خلفك ؟! ...

« تركت السرى خلفي لمن قل ماله !

وانعلت افراسي بنعماك عسجدا ... »

فهل كانت عطايا فارس بني حمدان وملكهم بهذه السعة حتى انعلت افراسك بالعسجد ؟ ... اذا كان الأمر كذلك فلماذا تطالبه وتذكره بما لك عليه كدين موقوت ...

وداعا يا ابا الطيب ، ان هذا السؤال لن يكون يتيما فخلال قرون متلاحقة تلاحقك اسئلة ، بعضهم يجيب عليها وبعضهم ينتظر عنها الجواب من الاخرين !

★ ★ ★

اللقـــاء الثالث

ـ سلاما يا ابا الطيب •

فها انذا معك مرة اخرى ، اثقل عليك بما اقول او اخفف بعض مـا اصابك من جفاء او عدوان •

لا تزال مشدود الملامح صلب التكوين صارم النظرة ، هذا التوتر الدائم هو سمة جميع المعجبين بانفسهم ، يطلون من علياء الذات المتكبرة الى الاخرين وكأنهم جميعا من سقط المتاع

ولكن لماذا هـم هكذا !؟ •• المجرد انهم لا يقولـون الشـعر اولا يجودون فيه مثل تجويدك !•• ام ان بعضهم يخاصمك في تجارة يمكن ان تبور وفق قاعدة العرض والطلب منذ الخليقة •••

ان شدة العجب بالنفس يعود وبشكل معقول بردود فعـل سـيئة فللناس ايضا اقدارهم وما من احد يطفف من شأنك ابـدا لولا الخـوف الذي يرهف الحس بالشك فترتدي النفس ثوبا من الخيلاء والتيه • ومن يكن كذلك ، من يرمى الناس بالنظر الشزر يتلقى ماهو اقسى من النظر الشزر !

لذلك قالوا فيك ما يؤذيك وانت حي فتماديت في كبرياء الغرور •••

ان الغرور ليس الكرامة انما شيء غير هذا ، ان الغرور أنتفاخ في طريق الذود عن النفس ، البحث عن حماية الذات بالكبرياء ؟••

ولعل أسوأ ما قيل فيك ، في ظني في الأقل هو ما قاله فيك شاعر لا اعرف اسمه ••• ولكن على كل حال فيجب ان يكون من المعاصرين لك او من مشايعي اعدائك بعد موتك •

هذان البيتان في ذمك تقول قصيدة من المطولات ذلك ان للسخرية

مرارة تستطيع ان تملأ خابية عذبة وهكذا هو الأمر مع قاذفك بشتيمته ...

« أي فضل لمن يطلب الفضل
من الناس بكرة وعشيا ؟ ...
عاش حينا يبيع في الكوفة الماء
وحينا ، يبيع ماء المحيا ! ... »

لقد أوجعني هذا الهجو المقذع لك ... فشددت الرحال الى الكوفة منذ اعوام ، ان السفر في زمني سهل ميسور فلم الاق عنتاً او اكابد وعثاء ... ذهبت الى الكوفة التي قيل انك كنت تبيع فيها الماء ... ذهبت الى ازقتها ، حواريها ، نزلت شاطىء الفرات الذي كنت تحمل منه الماء على ظهرك او على دابة ... ولم تكن بالطبع ، انت او ابوك وحدكما من كنتما تبيعان الماء في الكوفة فلقد كانت الكوفة حاضرة عامرة .

وكان باعة الماء لدورها ومساجدها ومقاهيها ودواوينها بالعشرات ومعنى هذا انك كنت من ادنى طبقات الناس اى افقرها في الكوفة ... وليس هذا بعيب فلقد خرجت من الماء لتصعد في السماء باجمل ما يحمل التاريخ من شعر تلك الأيام السوداء او البيضاء ..

مازلت مكفهرا كعادتك وانا هذه المرة اتحدث بالضرورة عما لا يرضيك فالمعجبون بأنفسهم ينزهونها من كل شائبة ... ومع ما يشوب صحة النسب عنك وتضارب الاحكام فيك فأن الرواة يقولون ، متجاوزين التخمين في الواقع والاحتمال الى الحقيقة دون اكتراث بتجريح المجروح من نسبك ...

يقولون ـ انك احمد بن حسين بن عبدالصمد الجعفي الكندي وكنيتك « ابو الطيب » ولقبك « المتنبي » وما من لوثة او مأخذ على عراقة عروبتك ونقاء لغتك وصفاء نظرتك ـ ويقولون عن « كنديتك » انها لصقت بك لا من قبيلة كندة بل بنسب الى محلة كنت تسكنها في الكوفة واذ يرجعون الى نسبك في الانساب القبلية فيقولون ـ انك قحطاني ...

ولكن ماذا وراء كل هذا ؟ فأنت عربي الاصل ، عربي اللسان ، عربي الهمة والجنان ... خرجت من الكوفة وجبت كل تنوفة وشققت متـون الصحارى مع صحب او وحيدا ومالك زاد قليل وقصيدة ورأس كبير على استعداد لاعطاء المزيد من القصائد لمن يعرف قدر ما تقول ... اولا يعرفه ولكنه يريده واذا كان ابوك سقاءا يحمل الماء من الفرات الى الدور والقصور فلقد عز عليه كأكثر الآباء ان يراك ترسف تحت عبء مهنته المرهقـة ... ولانه كان يحمل الماء الى مسجد الكوفة فقد انحصر اعجابه بالعلماء يفدون المسجد في صلاة مستمرة يلتف حولهم العامة يستفسرون ويتفهمون ، اراد لك الأب السقاء علما لتصعد منزلة هؤلاء العلية في العلم والمنزلة الاجتماعية فوجد السبيل الى ذلك في مكتب من المكاتب او كتـاب في الكتاتيب في الكوفة اقيم لابناء الخاصة اي لذوات وكبراء تلك الأيـام ... وبطريقة واخرى استطاع هو او استطعت انت الانخراط في مكتب الخاصة فبرزت مع فقر وتفوقت في الفهم والادراك على سواك ... فهذه هـي البدايـة لطفولة تدنو من الصبا فلا تفارق كتاب العلم الا في ريق من بواكير الشباب مزهواً بما اكتسب ... شاعرا بعلو المنزلة ... فمن رواسب تلك الأيام، من المفارقـات أو الفـوارق الطبقيـة في كتـاب الكوفـة ومجتمعهـا تكونت اولى واعمق رواسب الحزن التي تخمرت فيك لتغدو غضبا يتفجر حكمة او شتيمة ما اقساها فكيف اتيح لك يا ابا الطيب ان تندمج في كتاب ابناء العلية والذوات ، المقتصر عليهم وانت ابن سقاء في اوثق مصادر البحث عن نشأتك ...

يخيل الى انك تقول ــ اعرف كيف !

ولن اجد في الجواب معضلة ... ففي كل زمن من الازمنة الغابرة ، كان الاغنياء وكان الفقراء في طبقتين حادتين متميزتـين ، الاولى بالثـراء والوجاهة والثانية بالذلة والمسغبة ...

والكبراء من العلياء يحتاجون لصغارهم صغار الخدم يرافقونهم الى الكتاب يحملون عنهم متاع او حاجات الدراسة المطولة ... ووقـع اختيار احـد

هؤلاء عليك ، ذهبت معه الى كتاب الأغنياء والسادة ليس رفيقا بل خادما يرافق سيدا صغيرا آخر لحمايته !..

ان لونك الآن امام هذه الحقيقة يتفتح ، تبدو اكثر حقيقة في نفسك. لابد ان الأمر كان كذلك ، الخادم الصغير في كتاب العلية في الكوفة كان من الذكاء وحدة الذهن بحيث بز المرفهين المملوئين بالفطور الدسم وهو نصف جائع ...

وحفر بؤس الطفولة صور المرارة والحرمان عميقا جدا في اعماق الوجدان ... وتلك البداية المرة بكل سلبيات المشاهد القاسية المروعة مع بضاعة العلم المتزايد صعدت اسس الشموخ الذي تطاول في المستقبل على كل مستقبل آخر ...

واذا طوّفت بدوري طويلا في مدينة الكوفة ، في كوفان السواد والبساتين ، حاضرة النهر الخالد ... حين جبت آفاق تلك المدينة وارضها لم اتعرف على موقع الكتاب ، اين كان واين صار ومتى شعرت وبشيء غير خال من الزهو ان قدميّ قد وطئتا ترابا لابد ان وطئته قدماك ...

في ملتويات ازقة كندة وغير كندة في كوفة الفرات والعرب ساءلت نفسي كثيرا ـ ماذا كان يفعل ابو الطيب في تلك الباكورة حين ينتهي الدرس ... وكنت اعتقد ان البر بالأب العجوز كان يدفعك طفلا ان تشارك في عبء السقاية معه ... تقود حمارا او تمسك بقربة الى سواد الليل ...

هيه ، هيه يا ابا الطيب ... اية عبقرية لم تتلوع في نار الأسى ومرارة الحرمان لتبني كيان المستقبل في اطار من قوة الابداع !...

ومرة اخرى اكتسحني شعور بالمغامرة ، تصفحت ما تركت ... ديوان شعر هو كنز الحكمة ومصدر الألهام السخي للعديد من الشعراء ... وعودا على بدء وجدتك مع رجلك المفضل ... مع سيف الدولة ..

يستدعيك ايضا ، حاجته هذه المرة ملحة اليك وحسن ما فعل فلقد

دفعه اعجابه بنفسه ان تخلد اعماله وشجاعته فاستكتبك ذلك بالحاف أن تقول في كل شاردة وواردة له شعرا فجعلت ذلك الشعر ملحميا من حيث تريد اولا تريد ... فكان وكنت في ركاب التاريخ تنقل الى الأواتي من الاجيال ما وقع لبطل مثل سيف الدولة مع الحدثان من حدثان ... وها انت معه ... حضرت مجلسه ليصف لك بنفسه ايقاعه بالقبائل المعادية له المتصدية لسلطانه لانك لم تحضر الواقعة معه لتراها بنفسك فشرحها لك . ولابد انه اسهب واطال وتكلم على كل صغيرة او كبيرة لانك وصفت كل ذلك في واحدة اخرى من روائعك

« طوال قنى تطاوعها قصار
وقطرك في ندى ووغى بحار
وفيك اذا أجتنى الجاني اناة
تظن كرامة وهي احتقار
وأخذ للحواضر والبوادي
بضبط لم تعوده نزار

وتمضي هكذا ، وبالطبع انت تعرف ما في هذه القصيدة من انعطافات وانكسارات ودلال الى ان تقول في ابداعة ومواصلة حال المهزومين هذا الوصف التاريخي :

« وان جنح الظلام انجاب عنهم
اضاء المشرفية والنهار
ويبكى خلفهم دثر بكاء
رغاء او ثواج او يعار
غطاء بالعثير البيداء حتى
تحيرت المتالي والعشار
ومردا بالجباة يمر فيها
كلا الجيشين من نقع أزار
وجاءوا الصحصحان بلا سروج
وقد سقط العمامة والخمار

وارهقت العذارى مردفات
واوطئت الأصيبية الصغار
وقد نزح الغوير فلا غوير
ونهيا والبييضة والجفار
وليس بغير تدمر مستغاث
وتدمر كأسمها لهم دمار !!.

وعلى هذه الوتيرة من الدقة في الوصف والابداع فيه مضيت يا ابا الطيب في حبك قصيدتك وهي واحدة من اطول وافضل مافي الديوان فلقد وصفت الهول الذي انزلته جيوش سيف الدولة باعدائه من القبائل المنقضة عليه فوصفت الصبيات تحت وآطىء الاقدام وسنابك الخيل والعذارى مردفات في الهرب خلف الرجال وقد تقطعت سروج خيلهم وسقطت خمر نسائهم فظهرن مكشوفات من الهلع ثم وصفت احلاف تلك القبائل حين هرعت لنجدة بعضها البعض فاذا بها هلكى يدافع بعضها بعضا في الفرار والتوبة ...

هذه القصيدة معلقة حقيقية جديرة بالثناء لدقة مافيها من صور ملحمية نادرا ما وردت في الشعر العربي المطول وجمال هذه القصيدة يا ابا الطيب انها احتفظت مع نفسها الطويل بوحدة الموضوع فدارت مع المباهات والزهو في اطار معركة معينة فهل كنت تبارى بها نفسك يا ابا الطيب ، أم أردت ان تقول لولى النعم ، لسيف الدولة انك شاعره المفضل في تدوين مآتيه وصنائعه ووقائعه اكنت معه في تلك المعارك ام كنت عنه غائبا ولا ادري ماذا كانت جائزته لك على هذا الشعر المخلد لمأثرة الأمير الحمداني... في الحقيقة اذا لم يكافئك بما يوازيها في القيمة فيكون ازاء اثنتين اما ضعف الحال المالي لديه يومذاك .

واما تهوينه من قيمتها ... وقد بذلت انت فيها خلاصة التجربة ...
وعودا الى الكوفة ، لقد كان مستهل اللقاء هذا في الكوفة او عنها ...

يقول الرواة ان اباك كان يحملك الى البادية بعيدا عن الكوفة حاضرة العلم والسياسة يومئذ فلماذا كان يفعل ذلك ؟.. ستقول لي مرة اخرى أجب أنت عن ذلك ! ..

ولن تضعني امام مشكلة بعض الرواة كانوا يقولون انما كان يفعل ذلك حماية لحياتك اليافعة ولكن ممن ؟ ما الذي كان يتصدر لك بالارهاب فيقلق عليك ، بعضهم فسر ذلك بنسب علوي نسبت اليه دون ان تستطيع ان تجهر به ... وكان هناك خطر محدق لاخفائك لو بقيت في الكوفة فكان الاب العجوز او الجد لأم هو الذي يحملك الى البادية انقاذا لك من الضياع .

ولكنني لا اصدق هذا لانه من صنع الخيال ، فمن يكن له نسب علوي لا يدفع الى المسغبة واذل المهن فينسب الى سقاء بائس ينهض بأوده ... لم تكن باعتقادي علويا ، انما نسبوك الى بعضهم لكي ينالوا من العلويين باعتبارك ابن فراش او ابن سفاح ! وبقيت انت صحيح النسب سقاء ... او ابن بنت سقاء ... انما كان جدك يذهب بك الى البادية حماية لك من الجوع حين يستبد به الفقر حد الادقاع وحين يضيق بمهنته الكاسدة المرهقة فيحاول الخلاص من وطأة الحاضرة الى خفة العبء في البادية فاذا مايئس من البادية عاد ثانية وانت معه الى الحاضرة ، الى الكوفة ليعاود مهنته في السقاية ... ويبدو لي يا ابا الطيب انك مع التكرار قد اقتنعت بوجود شك في نسبك وفي صحة الأب الذي نسبت اليه ... ومع ان هذا لا يهوّن من شأنك فلا عار عليك اذا لم تكن منتسبا لأب شرعي ... وان ابنة السقاء حملتك تحت وعد بزواج عاجل كما يقع في كل زمان ومكان وكان الجد رفيقا بفتاته فتبناك ... رضي بك ابنا وسميته انت ابا ...

تعالى المجد ، ما اكثر عباقرة التاريخ في ضلة النسب فلا تكاد لهم صلة تظهر الحقيقة حتى تطمس عن عمد ...

هل انت مستاء من هذا اللقاء يا ابا الطيب ، طيب ّ المجد ثراك ...

هاشا اصافحك على ان نلتقي واود هذه المرة ان نلتقي بقصيدة مع كافور ، الداء العضال التناقض القوة والضعف البشري عبر الأجيال ...

ممدوحك الأخشيدي في القمة وهو ابو المسك ومقدوحك في الحضيض الأخشيدي نفسه وهو بالنقدين مردود ...

وهكذا في تناقضك الاول مع الحياة ، في اشتباك متصل مع الناس وما اكثر الشطط والسوء بين معاصريك في المرحلة التي عاصرت وعشت ...

اللقـــاء الرابـع

ـ كافور في النظرة الاولى ••• هل اذكرك بذلك يا ابا الطيب ؟••• ولكن قبل ذلك سلاما ، ستقول مرحبا • لا تذكرني بكافور ، ولكن كافورا قطب في شعرك فلو سحبنا كافورا من امامك لذهب ربع ديوانك فيه مدحا وقدحا •••

هل تذكر مقالتك فيه عندما بنى دارا ازاء الجامع الاعلى على البركة وطالبك بذكرها فقلت فيه مهنئا !

اظن ان طول العهد لم ينسك تلك الأبيات فلنقف عند مجتزأ منهـا

« نـزلت اذ نزلتهـا الـــدار   في احسن منها من السنى والسناءِ
« حـلّ في منبت الرياحين منهـا   منبـت المكرمــــات والآلاءِ
« تفضح الشمس كلما دزت الشمـ   ـس بشمس منـيرة سـوداء »
« ان في ثوبك الذي المجـد فيـه   لضياء يزري بكـل ضياءِ »
« انما الجلـد ملبس وابيضـاض   النفس خير من ابيضاض القباءِ
« كـرم" في شـجاعة وذكـاء   في بهاءٍ وقـدرة في وفاءِ »
« من لبيـض الملـوك ان تبـدل   اللون بلون الاستاذ والسحناءِ »
« فتراهـا بنـو الحروب باعيـان   تـراه بهـا غـداة اللقاءِ »
« يا رجـاء العيون في كـل ارض   لم يكـن غـير ان اراك رجائي »

هذا عن كافور في زمن السلم والموادعة ، زمن الامل بالعطاء الاكبر ، بما يوازي طموح النفس الكبيرة تلك التي تتعب في مرادها الآجسام •••

اما في حالة السخط والجفاء فأن لكافور صفات اخرى اقلها العيب في لونه ••• فبعد أن كان شما سوداء ••• منيرة ! صار لونه معرة ومشفره اضحوكة •••

هل تذكر ذلك يا ابا الطيب ... قلت هذا الذي سأذكر بعضه وانت تعود الى العراق بعد ان خرجت من مصر ومن صحبة كافور بالويل والثبور وبالحزن حتى تمنيت القبور ... لانك قلت قولا عظيما في رجل لا يستحق عشر ما قلت ... رجل ما عرف قيمة ما اعطيته من خلود ...

« وماذا بمصر من المضحكات !
ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطي من اهل السواد
يدرّس انساب اهل الفلا !
واسود مشفرة نصفه
يقال له انت بدر الدجى !
وشعر مدحت به الكركدن
ولكنه كان : هجو الورى ...

تلك في الرضى وهذه في السخط ... في الرضى عنه يا ابا الطيب قلت عنه

« تفضح الشمس كلما ذرت الشمس
بشمس منيرة سوداء »

فلما قال عنه غيرك ـ انه بدر الدجى ـ استثقلت ذلك واستكثرته عليه فما هو مباح لك أمحرم على سواك ؟

لماذا ؟...

لأنه

« اسود مشفره نصفه
يقال له انت بدر الدجى !... »

فها نحن اذن منذ البداية امام السالب في قطب الشعر القلق المضطرب بحاجات الدنيا وانت تركب القطبين سلبا وايجابا لتصل بهما الى ما تريد ...

بعضهم يقول ـ ان الرجوع عن الخطأ فضيلة وها انتذا تعرف ذلك

فتتدارك ما وقعت فيه من تباين في القيمة ، في المدح المغالي والقدح المغالي ، تتدارك ذلك ببيت جماله في شطره والأخير ...

« وشعر مدحت به الكركدن
ولكنه كان هجو الورى »

اواه من قلق الشاعر حين ينعطف انعطافاته الحادة دون كوابح ... يا سيدي العزيز ، يا ابا الطيب الطيب ، اذا كان كوفور كركدنا « افريقيا » في مصر فلماذا قصدته في مسيرة طويلة من ليالي التأهب والعذاب !...

واذا كان مدحك له هجو الورى فما ذنب الورى اذا وضعت بعض الأشياء في اماكن نستكثرها عليها فأنت اذ تمدح كافورا فانما لتثبت قدمه وتعلي من مقامه ... تدعو له بالعمر الطويل لتضيء شمسه السوداء ... ثم تقول انك بذلك المدح هجوت الورى لان كافورا هذا وجد في مكان اضطرتك الحاجة الى ان تقصده ... تنال ما تطمح الى ان يكون جزيلا وهل من جزل لدى بخيل ؟...

وبأعتقادي انه لولا كافور لبحثت عن غيره للعداوة والهجاء ... اسمح لي هذه المرة ان اكون اكثر صراحة وادق حكما من الآخرين على الا تنقطع بيننا صلة الود ... ان كافورا الأخشيدي الذي مشفره نصفه كان « ضحية » ومبدئيا كان يجب ان يكون لك موقف معين محدد من الرجال ، اغنياء لؤماء اخساء وفقراء نجباء اجلاء فلا تعطي صفات هذا لذاك ثم تعود فتسحبها منه ... تسترد ما وهبت لانهم كمشوا على ما كان يجب ان يكون بين يديك مما هو في ايديهم ... لسوء طابع كافور ان اخطأ في حسابه معك ... عدت مخيبا منه ولكن بقوة جديدة مرهبة على قواف من الشعر طافت بها الركبان ... هذه القصائد في هجو كافور ارعبت امثاله من الكوافير، فبضربة قاضية قوضت ما اعطيت لكافور وبذلك عرف من تمشي اليه اي فتى انت ... وكيف يمكن ان تضرب الأنف فتدميه عصورا وهكذا ارتفعت سوق القصائد التي كانت سهلة وسريعة بعض الاحيان وكثيرة لتسد مطالب الحياة ...

بالطبع ، لا انت يا ابا الطيب ولا انا ولا القاريء بحاجة الى ذكر الشواهد والنعوت مع كافور وضد كافور ••• كل هؤلاء يعرفون الشخص الذي مامن احد علّمه مكرمة ••• وقد فقد كل مكرمة اخرى عندما حسر ظله عنك •••

ولكن مهلا ، انني اتعامل معك بعد عشرة قرون ونصف القرن تقريبا فهذه المقاييس التي احاول غير دار أن اخضعك لها لم تكن سوى ظلال ••• كانت القصيدة جريدة ، صوتا واهابة ••• وكما يعيش حملة الاقلام اليوم من موارد جرائدهم ـ مدحا وذما ـ كنت انت الآخر مثل جيلك تعيش من موارد قصائدك وقد تبين لي انها كانت موارد شحيحة ••• اشبه بالصكوك المزورة او الخالية من التوقيع ••• وهذا ما جعلك كما ارى مدفوعا المرة تلو الاخرى ان تمضي من شهير الى شهير ومن سري الى وجيه وملء حقيبتك قصائد جاهزة او انها مجهزة في ذهن ما اكبر ما تروض على العطاء عند الطلب !

ومع ان شيئا مما قلت في كافور هاجيا هو فيه فعلا وبأوسع مما قلت الا ان الرجل يبدو كريما معك حين غضبت عليه وشتمته اشنع الشتم واقساه ••• كان في وسع كافور ان يقطع عليك طريق العودة فيرديك رجاله بسهم مريش في مقتل ••• ولكن الرجل لم يفعل ، ابتلع الشتيمة الكبيرة بهدوء ••• ظل اخشيديا صلب العود لا يبالي بمقالة شاعر •••

اما قطبك الثاني في الشعر فهو النقيض للأول ـ سيف الدولة ، العربي الجواد ، الفارس الشجاع الذي تخشى صولته ومع ذلك فلقد مشى بينكما الوشاة ••• اهانك في مجلسه فأسترضيته انت بذلة تنبو عما عرفت به من كبرياء حتى مع الملوك !

« ان كان ارضاكم ما قال حاسدنا

فما لجرح اذا ارضاكم الم ••• »

ومن خلال الدوارة ، سوداء بيضاء ، فقيرة هالكة وغنية مهلكة درت

مع فلك تلك الايام ، زرت بغداد وهي يومئذ مبددة بلا سلطان غير جـور حكامها من الموالي والاعاجم لسانا وقلبا وسحنة ، وزرت الشام وفيها بعض بريق ماضيها من وشي من الدمقس الدمشقي فلبست افضل ما فيها من ثياب حتى ظفر بك في حمص حاكمها لؤلؤة فطوح بكل ما لديك من عـزة لانك ادعيت النبوة وليس معك سوى قصائد مطولة ونسب ضائع تدخل عليـه الاصالة دون طائل !...

وأنتزعت منك في سجن حمص بلاغة « النبوة » لتحتفـظ بسـمة خفيفة مهونة وساخرة ومدعية فصرت « المتنبي » وانصافا انت في ميـدان اللغة والفلسفة الوضعية والروحانية نبي لفكر متطور في تيار من الغضـب البناء ... مع تجاوز للعصر في كثير ...

وعودا مرة اخرى الى الكوفة وفيها دارتك وجيادك ... آصال الحب في شطئان الفرات وانت تجوب الضواحي ...

وفي الكوفة كانت يومئذ حرب فكرية لمقدمات ترسخت بعدئذ شوامخ لا تبلى لقواعد اللغة العربية ، نحوها وصرفها وفقهها ... وتاريخ انساب البناة من الرجال ...

ولقد قضيت في سكينة رائعة مساءاً مقمرا في الكوفة ذات يـوم . كنت منهكا يا ابا الطيب جراء البحـث عن دارتـك !.. عن المكتب الذي تعلمت فيه ، عن الممرات والسبل التي سلكت لايصال الماء من الفرات الى الدور توطئة لايصال روافد الفكر العربي النـيرة في مسـيلها الطويل من جيل الى جيل .

الى اللقاء ...

اللقاء

الخامس

حياك الله يا ابا الطيب ما انقى لغتك واصفاها وكأنك حين تأخذها مفردة تصقلها اولا قبل ان تسلكها في عقد ...

حتى في اكثر الابيات غموضا وصعوبة يرتاح السمع الى شدو رقيق في الوزن فلا يبعث ذلك ضجرا بل يدعو الى المضي في قراءة ماهو صعب وما انبهم على القارىء من معان ...

احيانا اظن ان هذه الكلمات في قصائدك مفردات خصيصة بك ، جاءت اليك بمحض الرغبة وانا على حق في هذا الحكم فأن غيرك ايضا يستعمل المفردة التي تستعملها ولكن حين تكون بين يديك يختلف الامر معك ومعها ... صحيح انك على سعة باذخة في علم اللغة وفقهها وما فيها من شوارد وموارد وجديد وتليد ومع قدرتك الخارقة على اخضاع المفردة بعد الاخرى للوزن والمعنى الا" انك مع كل ذلك تضيق احيانا بالقاعدة العامة فتخرقها ، تعطي المفردة في ماضيها في الشكل دون ان تخفف من قدرتها على تحمل اثقل الاغراض عبئا ... ويبدو لي ان هذه الصفة ، صفة مشتركة بين العباقرة في جميع معطيات الفكر من اداب وفنون فبينك وبين الموسيقار الالماني يوهان بيتهوفن قرون ، تأخر عنك كثيرا واختلف عنك في الفن ... كانت تلك الفطرة القوية في مزيج من العبقرية والممارسة قد اعطتك قصائد لا تبلى ... وكانت تلك الفطرة المصقولة بالممارسة مع الطفولة المنغمة لدى بيتهوفن قد اعطته سمفونيات وسوناتات لا تبلى ...

وجه التشابه بين العبقريتين ، لديك ولدي بيتهوفن هو « الاختراق » اختراق القاعدة المثبتة بقدرة الذوق الرفيع وليس البحث عن السهولة ذلك ان بيتهوفن كثيرا ما كان يخترق القواعد الاساس في الموسيقى فيطوى السلم الموسيقي على عجل او ببطء كما يرى هو لا كما رآى ذلك غيره من

قبله ... وكان استاذه يصرخ به منزعجا ويقول ــ لن تكون موسيقيا قويا وانت لا تتبع القواعد ... فماذا كانت النتيجة ؟..

النتيجة ــ ان اخطاء بيتهوفن او كما كانت تسمى اخطاءا صارت تسمى مواقف بيتهوفن ... أو طريقة بتهوفن في الاداء ... ولك مثله العديد من الامثلة في اللغة دون ان تخترق ما هو اصيل الا ليبدو اكثر بريقا

واذا كان الصفاء في السبك ، دمجا وتشقيقا وتوشحة من سمات او من اثار الموهبة الباذخة فمن اين لك كل هذا الكنز العظيم من مفردات اللغة العربية ؟!

ان بعض مؤرخي اللغة العربية قالوا عن الفرزدق انه لولا شعر الفرزدق لضاع ثلث اللغة العربية فكم كان سيضيع من هذه اللغة لولا شعر المتنبي ؟، لولاك وانت تصنع اوعية لا تصدأ من معدن غال لتلك المفردات ...

اعتقد جازما ان هذا الثراء اللغوي لديك لم يأت اعتباطا بل هو ابن الجهد والعناء والسهر والحفظ والبحث والاستيعاب ... واذا كان بعضهم يعزو ذلك لديك الى حياة البادية التي عشت فيها ردحات من الزمن فليس ذلك هو السبب كله ... ذلك انك وضعت في قصائدك مفردات تكاد تكون قد اضمحلت حتى في البادية المتأخرة ... اذن هي حصيلة الكتب والدرس والحفظ للغريب والعجيب والشاذ والعام ، والمثل والأسطورة ...

وعندي انك قد حفظت او استوعبت عن ظهر قلب عشرات الألوف من اقدام الشعر والامثال ، حفظ المستوعب لمعانيها ايضا من هنا وجد بعض النقاد لشعرك من متقدمين ومن متأخرين ما وجدوا من تشابه كبير في اللفظ والمعنى والقافية وجدوا هذا التشابه الذي انتهوا معه الى انها « سرقات » حتى تم في هذا تأليف كتاب او اكثر بأسم « سرقات المتنبي » وماهي في الواقع بسرقات انما هي اشطار او جمل تقع في قصيدة الشاعر الحفيظ عند النظم ــ وهي كذلك ــ فيظنها من صنعه هو وانها باكملها لم يسبق اليها سابق حتى لو شكك في ذلك لن يتخلى عنها لقناعته

انها له ... واعذرني يا سيدي وانت استاذ الشعر ان اقول ان هذا كثيراً ما يقع لمعظم الشعراء الكبار لان المعاني تنثال عليهم من حصيلة دراساتهم وتجاربهم بعامة وهم عند النظم لا يمكن ان يكونوا بمنأى عن تأثير ما حصلوا عليه من نظم ونثر وما استوعبه العقل ورسّبه دون ان يقصد الشاعر سبيلا الى حفظها ... ويكثر هذا اي هذا الذي يسمونه «بالسرقات» في حالات النظم باجهاد ، اي عندما لا يكون الشاعر مستعدا ومرفه الذهن ومتفتحا للشعر بل يطلب الشعر بالحاح ليكون جاهزا في ظرف معين ... فالالحاح على الذهن لانجاز قصيدة دون تهيؤ الظروف النفسية والعاطفية يرهق الذهن ولتحقيق الطلب الملح على الذهن من قبل الشاعر يذهب الذهن الى مالديه من «خزين» فيطرح عبء الالحاح بوضع اشطار او ابيات كوامل امام فكر الشاعر وقلمه فيعتبرها من شعره هو وقد ذهب بعض نقاد الشعر الى جواز ذلك وبرروه بتسمية معقولة فسموا ذلك بـ « توارد الخواطر » وان كان من الجائز ان يقال ـ تشابه الخواطر » لان الابيات التي تقع في قصيدة شاعر ما من شعر غيره انما تحتوي على خواطر تحملها تلك الأبيات ...

لهذا فان من نظر في شعرك ونقده فمن زاويتين الحقد عليك بتشتيت وحدة القصيدة وغرضها وسلخ المفردة وتمزيقها لاظهار عيبها في الاستعمال استعمالك لها ... او الحب لك والتغاضي حتى عما هو واضح من النقص ومالا يمكن التغاضي عنه .

وفي ظني انك يا ابا الطيب ، ايها الاستاذ الاعظم للأباء والقوة في اللغة والبناء الشعري ، انك الى جانب هذا الرصيد الكبير المتوارث من شعرك على مدى الف ونيف من السنوات لم تنقل الفكر العربي المميز من جيل الى جيل ومن قرن الى قرن حسب بل كان شعرك هذا ـ عبر حياته المتواصلة ـ قد احدث مدرسة او مدارس نقدية لم تكن معروفة من قبل ... فلو اننا جمعنا ما قيل في شعرك من نقد ومصنفات لكان ذلك من ديوانك واكبر حجما اضعافا مضاعفة ...

اي ان شعرك يا ابا الطيب واختلاف الناس في فهمه وتخريج مراميه ومعانيه قد جعل للناس مذاهب في شرحهفتعددت المدارس التقدميه في الكوفة الى بغداد والبصرة نحوا من عشرة قرون ومازالت المسيرة متواصلة فقلما خلت سنة دراسية اكاديمية من دراسة متخصصة لجانب من جوانب شعرك او حياتك وكثيرا ما يشد الباحثون او اصحاب الاطر وحات الجامعية عنك، يشدون الرحال الى ابعد المدن والمكتبات بحثا عن شطر واحد لك او بيت غير موجود لك في مكان آخر فنحن اليوم في الشرق من ابناء هذه اللغة النبيلة وفي الغرب من المستشرقين المحبين لهذه اللغة الاصيلة نجد ان المدارس تتنوع في دراستك ... وكلما جدّ اسلوب جديد في النقد ظهر من يضع ديوانك او طرفا منه في موازين تلك المدرسة النقدية ليدهش بها الناس ... فكم هي متقدمة اشعارك يا ابا الطيب على معاصريك ...

ان قوة شعرك وصدقه بهذه الحرارة وعلى السواء في الهجاء او الثناء جعل الكثيرين من النقاد يغضون الطرف عن المحتوى الذي لم يعد معاصرا مع انه قائم في الواقع ولكنهم ينكرونه لانه : ثناء ومديح او تقبيح وهجاء وتجريح ...

وعودا على بدء بعض ما قلنا فاذا كانت الاشعار اعلاميات العصر الذي لم تكن فيه صحافة مكتوبةوكان صوت الشاعر بنفسهاو برواته هو الصحيفة الجوالة فما هو المختلف والمعيب بين الصحافة الشفوية التي تنتظمها قصائد الشعر في الماضي وصحافة اليوم مكتوبة بافضل وسائل الكتابة والنشر؟ ... هل انتزع من صحافة أواخر القرن العشرين ما كان من صفة القرن الأول منه !

هل خلت البشرية منذ ان فقهت الحياة واغراضها ومتطلباتها من حسدة يقولون في من يحسدون ما يقولون ؟ ... وهل خلت المجتمعات صعودا أو هبوطا من ذوي المصالح الخاصة يسندون هذا او يفندون ما يقوم به ذاك وفقا لغاياتهم ومنافعهم هم !

وهل صحافة هذا العصر على امتداد هذا العالم الكبير تختلف في شيء

جوهري عما كان يقوم به الشاعر في القرون الماضية ؟..

اليست صحافة اليوم في كل مكان قائمة على المديح والتقبيح اي على المدح والهجاء ... ذلك أنه ما من صحافة في العالم كله غير متحيزة الى فكر معين او اتجاه او فلسفة حكم معين تدور في اطارها وتقبح ما سواها ...

فهل فعلت انت يا ابا الطيب شيئا يختلف عما نفعله اليوم جميعا على نطاق العالم وما نكتب في الصحف من كلمات ومقالات وقصائد نهاجم بها انظمة باكملها او حكاما بعينهم لا نحبهم لسبب من الأسباب ...

شكرا لك ايها الاستاذ الكبير ، لقد فتحت امام قلمي وانا اتحدث اليك طريقا جديدة للحديث دون التواء او افتراء ...

استودعك الله فانني اخشى ان اثقل عليك اذا استبقيتك تصغى لما اقول .

اللقاء

السادس

ـ سلاما وحبا يا ابا الطيب،انه لنهار جميل ، انت غير برم هذا النهار، تفضل وترجل عن فرسك فلديّ شيء يرضيك « لدي كتاب » الم تعشق الافراس والكتب ، رمز الرجولة وحكمة العقل .

هاهو فرسك تحتك طلق العنان وكأنه يعرف من يحمل فيشعر هو الاخر بالخيلاء ، انت يا من تعرفك الخيل مثلما يعرفك الليل .

« الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم »

نعم :

وايضا يعرفك اولو الفصل رجلا يدرك غايته في مهب الريح وعصف الأيام وحلكة الظلام .

تفضل يا ابا الطيب ، اهبط كريما .. فعندي كتاب وانت من تجل الكتاب .

« اعز مكان في الدنى سرجُ سابحٍ
وخير جليس في الزمان كتاب »

نعم :

تفضل وترجل يا سيدي فانا اعرف ان خير جليس في الزمان كتاب ولابد انك قرأت الكثير من الكتب ، من كتب تلك الأيام والعلم يومئذ غلام والكتاب غالي الثمن عزيز المقام ولكن كيف كنت تقرأ ، ومتى ؟ ...

كثيرا ما تساءلت من أي المنابع استمد المتنبي ثقافته العربية الاصيلة

وكيف اضاف اليها كل هذه الرموز والابداعات الفكرية حتى كدت اخرجك من عداد الشعراء الكبار الى عداد المفكرين الكبار فلن يقول تلك المقولات الناضجة الفياضة بالحكمة غير رجل عرف الزمان معرفة اصيلة وصيلة وفهم ناس زمانه وناس من سبق الزمن بهم •• ولا اقول هذا جزافا يا ابا الطيب فأنت الذي تقول وكم هي واسعة معرفتك بالحياة الى حد النقمة المرة على ناسها •

« ومن عرف الأيـام معرفتي بها
وبالناس روّى رمحه غير راحم »

ولكن لماذا هكذا يا سيدي ؟

لماذا ؟

لأنه :ـ

« فليس بمرحـوم اذا ظفـروا به
ولا في الردى الجاري عليهم بآثمٍ »

وبزهوك المعتاد

هكذا يا سيدي تزيد في المقالة والملامة مسببا ما تقول بمنطق الزمـن وحكمة التجربة وقوة الفعل فتقول

« اذا صُلتُ لم اترك مصـالاً لفاتكٍ
وان قلت لم اتـرك مقالاً لعالِمِ »

هذا صحيح •••

ليس في الكبرياء من غلواء اذا ما اتسم بالحق والصدق واذا كان البعد الزمني بيننا يا ابا الطيب لم يبق لنا شواهد كثيرة على « صـيالك » غـير تارك مصالا لفاتك حيث تفتك به قبل ان يفتك بك ••• اذا كانت الشواهد بعيدة فان الشطر الثاني لا يزال مليئا بالشواهد فانت اذا قلت لم تترك مقالا لعالم بالشيء الذي تقول لانك اعلم منه فيه •

ومع ان شواهد العلم لديك وفي ما تركت اكثر من شواهد الصولة والجولة فقد صلت مصالا لا يدانيه مصال في ليلة حتفك ... كررت ولم تفر ... بعض من شانئيك قالوا ـ انما كانت بطولة القتال في معركة الحتف من اجل مال تحمله ، عدت به من فارس ... فذت عنه ... حتى لو كان هذا صحيحا فما العيب فيه اليس من الشهامة المحمودة ان يذود المرء عن ماله وعرضه ومتى كان معيبا ان يصول الرجل مصال الابطال دفاعا عن مال حلال له يسرقه قاطع طريق لم يشق بجمعه في سفر ورحيل ... غير ان ما يقال ايضا وليس لدّي ما ارده بحجة مقنعة قول بعض القائلين انك لم تشترك في حروب سيف الدولة الكثيرة مع انك سرت في ركابه وحين كان يخوض حروبه بنفسه على رأس جيشه ، كنت على فرسك ترنو اليه ...

ومع انهم فسروا ذلك ضدك ، عزوه الى عدم الشجاعة فأنني ارى لذلك سببا آخر ذلك انك كنت غاليا على «سيف الدولة» كان لا يريد لك الموت وانت تقحم نفسك في مصال السيوف ارادك شاهدا ومدونا ... ارادك كما هو اليوم « مراسلا حربيا » تشهد وانت قريب من المعركة واخطارها دانية منك فالسهام المريشة بمهارة الرماة قد تخطيء فتصيب البعيد وهكذا لم تكن بعيدا عن الموت حين ترى صاحبك سيف الدولة فتقول فيه باعجاب :

« تمر بك الابطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاحٌ وثغرك باسم »

ترى كل تلك المعارك المهولة وتبقى لتقول فيه
« وقفتَ وما في الموت شكٌ لواقفٍ
كأنك في جفن الردى وهو نائم ! »

ولكن كيف يكون هذا يا ابا الطيب ؟! ...
من ذا الذي يقوى ان يكون مكانه في جفن الردى ومع ذلك لاترتعد فرائصه ... لماذا ؟ كيف يا ابا الطيب ؟

لانك تقول في صاحبك وانت تراه في ارض المعركة

« تجاوزت مقدار الشـجاعة والنهى
الى قول قـوم :ـ انت بالغيب عالمُ !

« ضممت جناحيهم الى القلب ضمّة
تموت الخوافي تحتهـا والقـوادم

ولهذا لم يدفعك سيف الدولة الى قلب معاركه ، ارادك شاهدا لها ، مدونا لها ، مؤرخا له بالذات فالجبن او عدم الشجاعة تهمة مرفوضة .

فأهبط كريما رعاك الله وانزل منزلا حميدا فلدي ما اريد ان اعرفه .

شكرا لك اذ تهبط ، فرسك يصهل ويرمح الارض كأنه يأبى المربط... فما لنا وماله ونحن مع كتاب هو خير جليس ، ديوانك ...

قلت لنفسي مرارا ـ هذا المتنبي العظيم ألم يقع في غرام ساحق ماحق لامرأة ؟ لجارية ، لراقصة ، لمغنية ... شعر الغزل لديك مفتتحات القصائد في طريق المديح كما هو اسلوب العصر يومذاك فالبداية بالغزل شيء متمم للافتتاحية وكأن العرب كانت تفعل ذلك كمقدمة موسيقية سـارة يفهمها الجميع فما زالت المرأة ضالة الرجل ومطلبه فالقول فيها لا يرفض ولا يدان ...

الم تعشق في حياتك عشقا مبرحا لتقول شعرا مبرحا !

ستقول ـ واين لي الوقت اضيعه في مصانعة الود لخداع امرأة ؟...

الصحب كثار والرحال مشدودة ، تعود من سفرة لتعد العدة لاخرى ، مشغول بمراد النفوس الكبيرة فأنت : اخو سفر جـوّاب ارض تقاذفـك الفلوات صعودا ونزولا فردا وحيدا او في جماعة .

ـ اين الوقت للحب ؟ ، لمغازلة حسناء ... رعبوب ، بدوية حسنها الغضّ غير مجلوب !...

فيك خصلة عظيمة يا ابا الطيب ، تلك هي الكرامة وحـين تريدهـا

لتنسب أو نجدها في نفسك لاتأباها على المرأة ... وفي مرثيتك ــ لخولة ــ أخت سيف الدولة من الاحترام للمرأة وخولة في القمة حتى ان فرط الاحترام وعظم اللوعة بوفاتها وحرارة الابيات الملتاعة من القصيدة دعا بعضهم الى أن يربط لك بها علاقة « حب » .

اميرة واخت ملك ... خولة كانت امرأة رائعة الحسن ذكية المنطق . وكل حجتهم في ذلك يا ابا الطيب ان القصيدة كانت من اروع مـا قلت في ميّت اوحي على الاطلاق ... ولكن متى كانت قصائدك باردة جامدة الحس ولها كل تلك النبرات المتدفقات بعذاب الحزن الذي لا تستطيع كبح جماحة حتى في المسرات ...

ولكن الا تبدو عاطفة الشعر قوية مجلية في مرثاتك لـ .... خولة ؟

ستقول ــ انها اميرة ... اخت ملك اعجبت به .

ــ ولانها كانت ذكية جدا وجميلة جدا يا ابا الطيب فلابد انها قرأت قصائدك الجوالة كلها فاذا لم تقرأها كلها فلقد قرأت قصائدك المطولة في مدح أخيها ...

والذكاء مشاركة في الاعجاب ولابد انها اعجبت بك ولابد انها رأتك تدخل على اخيها في مواعيد لا يخص بها سواك ...

هل معنى هذا ان في ما قالوا نوعا من الصحة في انك « هـويت » الأميرة خولة اخت سيف الدولة حتى فاق حزنك حزن اخيها ؟ ...

ــ ارجو ان يخف غضبك يا ابا الطيب فهذا ما يقال ونحن الآن معك بعد الف ونيف من السنوات ولابد ان نصل الى بعض الحقائق المجهولة عنك ، عن طريق قراءة جادة لاشعارك مفسرين ما وراء السطور والشطور والكلمات ... دعنا نقرأ شيئا من مرثيتك في « خولة »

« يا اخت خير اخ ، يا بنت خـير اب

كنايـة بهمـا عن اشـرف النسـب

اجل قــدرك ان تســمي مؤنثــة
ومن يصفك ، فقد سماكِ للعــرب
لا يملك الطرب المحــزون منطقــه
ودمعه وهمــا في قبضــة الطــرب
غدرت يا موت كم افنيت من عدد
بمن اصبت وكم اسكتّ من لجب
وهكذا من لوعة الى اخرى اشد ...

ولا اريد ان اعيد القصيدة المحمومة بحزن الفقــدان ولكــن بعض ابياتها يجب ان يقال ليعرف من لا يعرف كيف يتألق منطلــق الصدق في المأساة ...

« طوى الجزيرة حتى جاءني نبــأ"
فــزعت فيه بآمالي الى الكذب »
حتى اذا لم يدع لي صدقه امــلا
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي ...
كأن « خــولة » لم تمــلأ مواكبهــا
ديار بكر ولم تخلع ولــم تهب !
ولــم تــردّ حيــاة بعــد توليــة
ولم تغث داعيــا بالويل والحــرب
ارى العراق طويل الليل مذ نعيت
فكيف ليل فتى الفتيان في حلب !
يظــن ان فــؤادي غــير ملتهــب
وان دمع جفوني غــير منســكب !

وياله من قسم مشدد غليظ يا ابا الطيب حين تقول فيها
« بلى وحرمــة من كانت مراعيــة
لحرمــة المجــد والقصــاد والادب

ومن مضت غير موروث خلائقها
وان مضت يدها موروثة النشب
وهمها في العلى والمجد ناشئةً
وهم اترابها في اللهو واللعب
يعلمن حين تحيا ُحسن مبسمها
وليس يعلم الا ّ الله بالشنب
مسرة في قلوب الطيب مفرقها
وحسرة في قلوب البيض واليلب
اذا رأى ورأها رأس لابسه
رأى المقانع اعلى منه في الرتب
وان تكن خلقت انثى فقد خلقت
كريمة غير انثى العقل والحسب
وان تكن تغلب الغلباء عنصرها
فأن في الخمر معنى ليس في العنب
فليت طالعة الشمسين غائبة
وليت غائبة الشمسين لم تغب ...

لا استطيع يا ابا الطيب :

لا استطيع ان امضي اكثر فكل القصيدة بهذا السمو والحشمة اعذرني حين وضعت الأسم في القصيدة بصراحة فأنت تقول

« كأن « ثعلة » لم تملأ مواكبها
ديار بكر ولم تخلع ولم تهب »

في حين تريد أن تقول

« كأن « خولة » لم تملأ مواكبها ...

فمنعت اسمها عن القصيدة حرمة لأخيها ولكنك نسيت ذلك حين قلت فيها كل كبيرة وصغيرة مجنبا نفسك عناء التهمة حين قلت تكريما لها

« يعلمن حين تحيا ، حسن مبسما

وليس يعلم غير الله بالشنب ...

وتعنى بهذا انه ما من احد سوى الله عرف طعم ذلك الشنب العذب والرضاب الحلو فتترك علم ذلك لله وحده .

وحين تتصور فداحة الحزن لدى اخيها لان من في العراق في لوعة وحزن لفقدها تنسى ان لوعتك كانت اكبر من لوعة اخيها فيها .

« ارى العراق طويل الليل مذ نعيت

فكيف ليل فتى الفتيان في حلب ؟!

اعتقد يا ابا الطيب ان ليل سيف الدولة لم يكن أطول من ليلك في الجزيرة وقد طواها النبأ الفاجع ولكن لنا مجال آخر يا ابا الطيب ... فرسك يصهل على مربطه

وقد اثارت خولة فيك مرارة الذكرى وازعجك ما قال القائلون وهرفوا بما عرفوا وبما لم يعرفوا فليكن لنا لقاء آخر ...

لا تنس انه سيكون للسؤال القديم والذي اعتلج في الصدور منذ عصور .

ـ هل احب المتنبي حبا خاصا ، اختص به فتاه واحدة ... هام بها وحدها ... ما من ذكر لذلك ربما هي حشمة الكبرياء والشعور بالمسؤولية الاخلاقية تجاه من احب ... ولكن الكأس حين تمتلىء تفيض . وما فاضت لك كأس بفتاة واحدة اختص بها قلبك الكبير ...

الى اللقاء اذن ...

وفي المرة القابلة سأمسك بشبابك فلعلك في تلك الأيام اكثر جرأة في الافصاح عن مشاغل القلب ... وهل من شاغل للقلب في الشباب غير الحب الى اللقاء .

اللقـــاء السابع

ـ مرحبا يا ابا الطيب ، يا احمد العودة
لقد جئت اهلا ووطئت سهلا ٠

تفضل ، لقد انتظرت ، مر بعض الوقت في شك فلعل شاغلـة قـد شغلتك عني ٠

ولكن مثلك لا يخلف موعدا ، تفضل راجلا جئت هذه المرة فهـل اجرؤ منذ البدء في السؤال ـ هل احببت في حياتك ؟ يبدو السؤال غاية في الغرابة فأي رجل حساس مثلك وقد هزته اشياء كثيرة في الحياة لا تهـزه امرأة فاتنة الجمال في بدو او في حضر ٠٠٠

ولكن هزة الاعجاب غير هزة الحب تنزل الى الاعماق فتجعل الحبيبة فوق كل مكان ٠٠٠ هل لك حبيبة حقا ؟ ما اسمها ؟ ما مدى علاقة هـذا الحب ؟ هل شببت بها ؟ اين ذلك الغزل ؟٠٠٠ في مطالع القصائد ؟ هذا غير كاف فأن ذلك كان من مستلزمات الصناعة الشعرية ٠٠٠ او فنها كما نقول اليوم ٠٠٠ اني اشك في انك احببت واحدة بعينها حب غرام ٠٠٠ فليست لك امرأة مثل « بثينة » عندجميل ولا مثل « عزة » عند « كثير » ولا مثل « ليلى » عند مجنون بني عامر ولا مثل « عبلة » عند فارس بني عبس عنترة ٠٠٠ ولا مثل هند وزينب والاخريات عند عمر بن ابي ربيعة اغزل من تغزل بالمرأة اذن ودون عدوان عليك ليس لك واحدة اختصصت بها ، منحتهـا من الحب ماهي أهل له ٠٠٠

تبارك المجد ، مجد الاباء والرجولة فيك حتى صددت نفسـك عـن الحب لا تطرحه الا لماما

ـ ابحث عن شعري ، في شعري للمرأة ظل

ـ نعم يا سيدي ، ظل وارف ... ظل او خيال ولكن بلا وجود بلا حرارة للوصل ، بلا امل او رغبة او مكابدة غير انني وجدت بصيصا من الأمل في انك احببت حينا قبل ان تكبر وتتجاوز ما هو غير مهم في نظرك لتشغلك هموم الحياة الكبار

قرأت ديوانك طويلا قبل ان التقيك ، وها انتذا معي . شكرا لك ، في شبابك وجدت لك « عينية » تتدفق بالحرارة للحب . هل تذكرها كان ذلك في صباك وقد جعلت الغزل رقيقا رقيقا في قصيدة المدح لـ « علي بن احمد الطائي » وانت تستهلها هكذا :ـ

« حشاشة نفسٍ ودعت يوم ودعوا
فلم ادر أي الظاعنين اشيّعُ

اشاروا بتسليم فجدنا بأنفسٍ
تسيل من الآماق والسم ادمعُ

حشاي على جمر ذكيّ من الهوى
وعيناي في روض من الحسن ترتعُ

ولو حملت صم الجبال الذي بنا
غداة أفترقنا او شكت تتصدعُ

بما بين جنبي التي خاض طيفها
اليّ الدياجى والخليون هجعُ

أتت زائرا ما خامر الطيب ثوبها
وكالمسك من اردانها يتضوّعُ

فما جلست حتى انثنت توسع الخطى
كفاطمة عن درها قبل ترضعُ

فشرّد اعظامي لها ما اتى بها
من النوم والتاع الفؤاد المفجّعُ

فيا ليـلة ما كان اطـول بتهـا
وسـم الافاعـي بعض ما اتجـرّعُ

تذلل لهـا واخضع على القـرب والنوى
فما عاشـق مـن لا يـذل ويخضـعُ !

افهذا هو كل ما عندك ؟

اعذرني يا ابا الطيب ان اقول ــ اذا كان هذا الغزل في الصبا فكيف يمكن ان يكون في الكهولة ... عند هذه القصيدة يجب ان نقف معا يا ابا الطيب ... والوقفة لا تقف عند معيبة في الشعر فالبناء رصين متين منـذ بواكير الصبا لصدق الموهبـة وغـزارة الذخـيرة في ايـام الدرس ...

لا عيب في ذات القصيدة من حيث البناء المرصوص فما يسـبقك في ذلك سابق ... ولكن النظرة او الوقفة هي عند المحتوى ... فالصـورة واضحة ، حكاية غير جديدة ان تتسلل امرأة مفتونة برجل فتلاقيه خلسة فتقضي له وطرا ثم تعود متسللة خائفة او راضية ولكن فتاتك منذ البداية جزوع قلقة قصيرة الزيارة فأنت تقول

فما جلسـت حتى انثنت تواسـع الخطى
كفاطمة عـن درهـا قبـل ترضـع ...

يا لها من حبيبة ذات عفة يا ابا الطيب فما تكاد تطرقك زائرة حتـى تنثني وسيعة الخطى هاربة وكأنها تعود الى رضيع لها لم تعطـه من درهـا فتشفق عليه فتعود هاربة ... هكذا هي زائرتك واين هي من فتاة امريء القيس وقد طرقها هو في خبائها ولم يدع حيلة حتى امتطاها ورضيعها خلفها ثم خرج يشنع بها

« اذا ما بكـى من خلفهـا انصرفت له
بشـقٍ وتحتـى شـقها لـم يحوّل »

فمثلك حبلـى ، قـد طرقـت ومرضـع
فألهيتها عـن ذي تمائـم محـول ...

والمعلقة معروفة بدءا من عنيزة …

فقلت لهـا سـيري وارخي زمامـه
ولا تبعديني عـن جنـاك المعلل …

ثم تعقبها تلك الابيات المثيرة وهو يدل بها بنفسه على راكبة الجمل
ويوم دخلت الخدر ، خدر عنيزة
فقالت : لك الويـلات ، انـك مرجلي

اين زائرتك من نساء امرىء القيس ، من عشيقات عمر بن ابي ربيعة حين يوصي من يصل مكة :

اذا لم تجد هندا ، فالسلام على الاخرى !

فأن اية أخرى ، اية امرأة كانت في هواه كما كان يظن لفرط غروره وثقته بنفسه فالحسان جميعا يعرفنه فيرسل التحيات جماعية اليهن …

تطرق برأسك مبتسما يا ابا الطيب وتقول وبعد ؟

ـ بعد ماذا ؟ .. فالتي تختارك للحب ذات صون وعفاف تزورك جازعة وتفارقك هالعة فلم تفعل معها ما يفعل العشاق … فلا تقول لك صاحبتك ما قالته صاحبة عمر بن ابي ربيعة لعاشقها …

« فقم غير مطرود ، وان شئت فأزدد »

فهل ازداد عمر بن ابي ربيعة منها ساعة الفراق ؟ .. بلى يا ابا الطيب وانت تعرف ما فعل وقال

« فما أزددت منها غير مص لثاتها
وتقبيل فيهـا والحـديث المـردد »

فأنت لم تصفها ،

زائرتك هذه الآن بكل حشمة مكبرا اياها لعودتها كالفاطمة لم ترضع درها في حين يصف عمر بن ابي ربيعة حبيبته او انيسته بهذه الرقة الصلفة ..

« وناهدة الثديين قلت لها اتكي

على الارض من جبانة لم توسّد »

فقالت يمين الله امرك طاعة

وان كنت قد كلفت مالم اعوّد » !

وشتان بينكما ...

لا مجال للمقارنة ، لا مجال للقياس ، لا مجال للمشابهة العفة عندك يا ابا الطيب والخلاعة عند عمر بن ابي ربيعة وطوال حياتك ـ القصيرة يا للحزن ـ لم تعرف المرأة جسدا ، لم تفحش في غزل او تماجن حتى خيالا مع امرأة ... الا بلطف كالناظر خلسة !

فلماذا انت هكذا في الغزل ومع المرأة يا اشعر الشعراء ؟

الانك عرفت الحب وكيف يمكن ان يحصل الرجل على رضى حبيبته فعافت نفسك الكبيرة وسيلة الوصول ، وانت تدل غيرك على الطريق وتأبى أن تسلكها :

فتقول :

« تذلل لها واخضع على القرب والنوى

فما عاشق من لا يذل ويخضع »

فهل ذلة العشق قد ابعدتك عن العشق ام انك كنت ، كما انت عبر التاريخ عملاقا مكفهرا صارم النظرة لا مكان للفكاهة لديك فلا تدنو منك امرأة الا على تهيب ولا تعجب بك فتاة حتى تكتم حبها في صدرها شعورا منها بالصغارة لانك اكبر منها ومن حبها الصامت ومن حسنها الذي يتذلل للوصول اليه غيرك !

انت لم تبحث عن الحب ولم تشدد ازرك بأمرأة مع انك حضرت افراح

الملوك والامراء وشهدت مجالس الطرب والشراب والاعيب الجواري والقيان وحتى الغلمان فلم تكن فيك لوثة شاذة

هذا انت في حسباني يا ابا الطيب ، مرعب في الحب ، على جوادك او راجل ، رفيق وجيه وصديق امير وفي صحبة ثري متمكن ، انت في وسط آخر ، في طبقة لا مكان فيها لحب صاف وود يقتصر على رجل واحد ... ولم تكن تواقا للجنس كما ارى ، والا اين حتى التلسيحة الى جسد بين يديك ... الى شارة لعضو في المرأة حساس ...

عف الفؤاد . عف النظر ... ولكي لا نسقط في دوامة رومانسيه ونحن نقرر معا حقيقة مهمة في حياتك يجب ان نعود الى بعض مصطلحات هذا العرض ... في التحليل السايكولوجي الذي كان موجودا ولكن خارج اطار التحديد ... في التحليل المعاصر انك مثل اعاظم الشعراء والفنانين كنت نرجسيا يا سيدي دعني اشرح لك هذا ، النرجسية هي عشق الذات ، ابرازها في كل مجال ، تفريدها بكل نفيس ، ركب المخاطر من اجل تأليقها...

وهنا بخشوع تام للنرجسية في الابداع لدى الاعلياء في المواهب يجب ان نقر هذا التحليل الى حدما ... بايرون وهو شاعر انكليزي كان نرجسيا . هوغو وهو شاعر فرنسي كان نرجسيا متعاليا اكد نرجسيته وفق طريقته باخضاع المرأة لشهوته ... وتحدى الملك في عنفوان غطرسته ... لقد عبر كل واحد من هؤلاء ومئات مثلهم عن نرجسيتهم بهذه الطريقة او تلك ولم تشذ عنهم ... عبرت عنها بالمجد والمال والشجاعة وكل ذلك توكيد على الذات ، على « الانا » الكبيرة ، « انا » الفوقية المسددة من الداخل ...

ما كنا نسميه الانانية وحب الذات صار له مصطلح « ايثار النفس لا ايثار الغير عليها »

تبتسم ايضا يا ابا الطيب ، ربما ساخرا من هذه الرموز ؛ ما اتفهها !ـ حقا لهي كذلك فأنت تعرف ما يعرفون منذ الف ونيف من الاعوام حين تقول :

« على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكـرام المكارم »

فماذا يعني هذا غير ذاك ... ومن اهم اهل العزم الذين يأتـون او يصنعون العظائم ؟ ... هم المحبون للمجد اى الذي تكبـر امانيهـم او نرجسيتهم حتى يكونوا في ذرى المجد في الادب وفي الحرب ...

فهذا انت ومن اجل هذا لم تبرز في غزل لانك لم تفتح قلبا لأمـرأة تملك عليك كل شيء وانت تريد لنفسك الشموخ والعلانية وازدهار الصيت ... ام عندك شيء آخر ؟

اتقول عندي غير هذا من الغزل ... دعنا نر ذلك اسمح لي ان اقلب صفحات من الديوان ام ان لك فاكرة قوية فتقول ما لديك ؟ .. الافضل ان نرجع الى الديوان يا ابا الطيب ... فها انت ذا تقول

« هام الفؤاد بأعرابيـة سـكنت
بيتاً من القلب لم تمـدد له طُنبا
مظلومـة القد في تشـبيهه غُصُناً
مظلومة الريق في تشـبيهه ضـربا
بيضاء تُطمِع في ما تحت حلتهـا
وعـز ذلـك مطلـوباً اذا طُلبـا
كأنهـا الشمس يعيي كف قابضـه
شـعاعها ويـراه الطـرف مقتربـا
مرت بنا بـين تربيهـا فقلت لهـا
من اين جانس هذا الشادنُ العربا !
فأستضحكت ثم قالت « كالمغيث » يرُى
ليث الشرى وهو من عجل اذا انتسـبا

ولا علاقة لنا ببقية القصيدة فكلها مكرسة لمديح « المغيث بن علي بن بشر العجلي » وهكذا بقفزة في البيت الأخير من الغزل عدنا الى الممدوح الذي هو « عجلي » الذي قالت الحسناء عنه انه يرى كليث الشرى في حين هو عجلي في نسبه ... فلنعد يا ابا الطيب الى غزلك فأنت تصف الاعرابية التي اعجبتك وسكنت القلب ولو لمرة واحدة ، تصفها بوصف سبقت به فأنت تقول متأخرا عنهم :

« مظلومة القد في تشبيهه غصنا

مظلومة الريق في تشبيهه ضربا

و « الضرب » هو العسل فريقها يظلم اذن اذا ماشبه بالعسل مثلما يظلم قدها لو شبه بالغصن !.. وليس في هذا من جديد ففي شعر الجاهلية من قبلك ارق من هذا

« مهفهفة بيضاء ، غير مفاضة

ترائبها مصقولة كالسجنجل »

فأمرؤ القيس يصف المرأة التي احبها او راودها واشتهاها وصفا يتفق مع كل عصر في مقاييس الجمال فهو يقول ويا للروعة « مهفهفة بيضاء غير مفاضة اى رقيقة غير ممتلئة ... وترائبها مصقولة كالمرآة وماذا اذا تخطينا امرأ القيس ؟ ... فأنت تقول بشيء من الجرأة غير الأعتيادية فيك عن هذه الاعرابية بانها

« بيضاء تطمع ماتحت حلتها

وعز ذلك مطلوبا اذا طلبا !

وهكذا مرة اخرى مع عفتك ، مع اعرابية يطمع الناظر اليها ليحصل على ما تحت حلتها ولكن هيهات فما اغلى واعز الطلب اذا طلب منها ذلك . فهي ليست فتاة سهلة المنال مثل عشيقات بعض المجان من الشعراء ... فهذا انت ارق من هذه الابيات من ابيات آخر لك ...

تقول ــ عندي المزيد ، ما اجمل ان نقف على هذا المزيد من غزلك فبعضهم يتهمك بالجفاف وبالخواء العاطفي ••• لنمحص قليلا في الديوان . حسنا لنقف هنا يا ابا الطيب ••• فأنت تقول في مستهل قصيدة في مدح ابي القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي غزلا جميلا لولا انه قصير حيث تقفز بقية القصيدة الى غايتها فأنت تقول

« اعيدوا صباحي فهو عند الكواعب
وردوا رقادي فهو لحظ الحبائب
فأن نهاري ليلة" مدلهمة"
على مقلة من بعدكم في غياهب
بعيدة ما بين الجفون كأنما
عقدتم اعالي كل جفن بحاجب !

فما اجمل هذا المستهل يا ابا الطيب ••• ولكن ما يضعفه للأسف هذه الصفة الرسمية التي تبعدك عن خصوصية المشاعر فأنت تخاطب جمعا من الكواعب سرقن صباحك منك ••• وتطلب رد الرقاد اليك فهو عيون الحبائب ••• اخذن الرقاد منك ذهبن به بلحاظهن واذ يخفت رنين الكلمات في ضيق الوصف تواجهنا باروع الوصف للعين المسهدة فتقول

« بعيدة ما بين الجفون كأنما
عقدتم اعالي كل جفن بحاجب ••• »

اقول هذا موهما نفسي انه غزل في فتاة في حين انت تريد بهذا مقلتك الراضخة تحت نهارك الذي هو ليلة مدلهمة ولقد جعلك السهر مفتوح الجفنين على سعتهما وكأن كل جفن معقود من اعاليه الى حاجب لكي لا يغمض •••

لو كان هذا البيت لحسناء ••• لو كان هذا وصفا لعين جميلة مفتوحة على سعتها ، يا لجمال المخادعة التي اوقع نفسي فيها احيانا ، محرفا عن عمد لكي احصل على جمال من اللوحة ، من الاطار دون الصورة •••

لقد اخذ الضجر يدب اليك ، ارجو المعذرة فانا لم اقل الا ما هو جميل وصحيح فأنت تحب الصدق في القول وفي العمل وهذه لمحة من الصدق ...

ــ دعنا نلتقي مرة اخرى ، نجلس هذه المرة نفكر باشياء غير الحب ... بتلك النظرات العميقات في سعة على الحياة ... ان نفهم ذلك الاحتجاج الساخر من خلال الحزن او الغضب ...

استودعك الله ...

الى اللقاء !..

اللقــاء الثـامن

ما من شيء اقوى من الحزن في تفجير عبقرية الاديب والشاعر كقوة الحزن ، هذا الضغط الرائع الذي يجعل ينابيع الابــداع تنبجس في قلب الشاعر فتدفع من الاعماق الى السطح أبدع واصفى ما لديه ...

ان الحزن هو المخزون النقي لخامات الشاعر وهو لا يصل اليها الا حين تصل اليه ... ولكن ما هو الحزن ؟ ان له تعريفات متعددة تتخـذ سمات واوصافا متباينة حسب عارفها او متذوقها او الشاعر بها ومن كل ذلك يمكن ان نقول ان الحزن مجموعة من الترسبات المتعددة عبر الحياة ، عبر المعاناة والامال والاخفاقات والخسائر ، أي كل ما لا نستطيع رده فيفرض علينا فرضا بحكم ظروف لا قبل لنا على التصدي لها ... وتلك المشاعر التي تحمل احوال او بيئة تلك الاحوال تظل ردحا جهيرة في السطح نعبر عنها بالصخب او بالبكاء العاجز او بحرمان انفسنا من الطعام او الشـراب تلك التعبيرات الاولية للحزن هي القشرة وما هو عام ودقيق ، ادق مافي الحزن من خلايا ، ينزل ليستقر في زاوية معينة من دماغنا ... حتى ان تلك الزاوية سميت بزاوية الحنين مرة وبزاوية الذكريات ولكن ما لا نكران فيه ان جانبا من الدماغ متخصص بحفظ الوجائع والفجائع والافراح معا . لتكن تلك هي الذاكرة التي تختزن مجموعات من الصور التي مررنا بها عبر حياتنا ... وللحزن من ذلك جانب كبير لاننا عبر تناقضات الحياة وتغلبها على آمالنـا اكثر من قدرة التصدي لها يجعل خزين تلك الاخفاقات او النجاحات القليلة موضع احترام من الذاكرة لانها ملامح للأشياء التي هبطت اليهـا بتـؤدة وحنان :ــ

سلاما يا ابا الطيب ... ها انني قلت دون ان اعرف انك هناك قبالتي، قلت هذه الأشياء عن الحزن ، ذلك لانك كنت في السويداء من قلبي ... وحزنك الكبير الذي تدفق عن انبل ما عرف به الحزن من روائع ، حـزن

عبقري ، حزن رجل طليق شموخ يشعر بالطوق في عنقه وهو خال من اي طوق وبالاصفاد تشد على معصمه وليس هناك من اصفاد لان احساسه المرهف واخفاقه في الحصول على ما يريد يجعله تحت طائلة المشاعر الكئيبة لانه يطمح الى حرية اوسع مما يجد وهذه هي بلوى شاعر يملك ما تملك من افاق ••• لذلك فأن اصدق ما قلت من الشعر هو الذي لم تقله مادحا او راثيا او مشنقا على احد سوى نفسك ففي اجود مراثيك يطفح قلبك بالحزن فيتفجر باروع ما يمكن ان يقال وما دامت النظرة شخصية يا سيدي فأن اعظم قصائدك تلك الدالية الجريحة التي قلتها زاخرا بالأسى والحنين في طريق العودة من مصر الى العراق ، الى كوفان السواد وقد اطل العيد وانت بعيد عن الاهل والاحبة والصحبة الطيبة ، وربما خالي الوفاض خالي اليدين وامامك مسيرة طويلة عبر الصحارى والوهاد الى وطنك •••

ــ عيد ــ بأية حال عدت يا عيد ؟
بما مضى ام لأمر فيك ، تجديدُ !

اما الاحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيدا دونها بيدُ !

انك تهتز يا سيدي

مرعوب الملامح تهتز ••• انني اقل جودة من ألقائك للشعر بتلك النبرات المتموجة من فوق الخيل او المنابر والدواوين !••• ولكن هذه القصيدة بعينها تهز كل انسان يقرؤها فأنت تشكو من اطلالة العيد ، في عشية العيد ، تتساءل لمَ يأتي ؟

انما يأتى يا سيدي من اجل الآخرين ليرسم البسمات فوق الشفاه والقبلات بين الاحبة والخلان وشملهم مجتمع على صفاء •••

اما أنت في تلك العشية من العيد فماذا لديك وقد رددت عن كافور باوجع ما يصاب به قاصد مؤمل •••

وهل تلام اذ تتمنى لو انه كان بينك وبين العيد بيد دونها بيد •••

لعلك لا ترى ما يحمل للآخرين وانت وسط أحزانك وهجرتك المخيبة ..

ولكن لماذا اقطع عليك جلالة التأمل بهذه التعليقات التي مررت انت بدواعيها حتى استقامت هذه القصيدة واحدة من ابرز معالم الشعر العربي.

« لولا العلى لم تجب بي ما اجوب بهـا
وجناء حرف ولا جـرداء قيـدود

وكان اطيـب من سـيفي معانقـة
اشـباه رونقـه ألقيـد الامـاليـد

ياالهي ...

كيف لا اقاطع نفسي بالتعليق على هذه القصيدة الرائعـة المروعـة وامنياتك الحية تنثال حزينة تثير فيك الهم فتتمنى البدائل ...

ترى انه كان من الاطيب لك من حمل السيف « معانقة » ما يشبه رونق هـذا السـيف من الغيـد الامـاليـد اي أنـك تتمنى بحـرارة معانقة الدعة والجمال على السيف ومافي السيف من رعب وبسالة تحرم على حامله الكثير من معطيات الجمال والملاذ ...

ولكن ما العمل وانت تعرف لماذا اخترت معانقة السيف بديلا من معانقة الغيد الاماليد ... « فلولا العلى » لم تجب بك وجناء من النياق صحارى ترهب الغيلان ! وانت متفرد ، متمرس ، هادىء ، غير تائه ولكنه تياه بما يملك ...

لقد كان في وسعك يا سيدي ان تقبل البديل بأن تدع معانقة السيف وما اسهل الحصول لمثلك على معانقة الغيد الاماليد ففي كل عصر وزمان منهـن الكثير ... ولكنـه « العلى » والعلى لديك معانقتك للسيف !

« العلى » هو « تعلية الذات » بوضع الشخصانية في المحل الارفع ، اى العودة الى النرجسية التي تريد لك العلى لأنه المع وابرز ، لان العلى متعب ولكنه اسطع لبروز الأنا الى الاعلى ... وكم هم سعداء اولئـك الذين يبقون نرجسيتهم في الداخل ، فيجدون الحب في الظل في ظل الغيـد

الاماليد ••• ولا يمسكون بالسيف الا من حمائله ولايرون الا بـريق روناه ••• لذلك فالذين يعانقون السيف هم القلة ، هم الذين يقدرون على دفع الغالي من الجهد ولا يبخلون بشيء ••• وهكذا فأن الحـزن الكبير يعطي اعمالا ادبية كبيرة لانه وبقدرة فائقة يلقى شحنة قوية في الفكر ليضعها على الورق في مجرى الابداع ••

المعذرة يا ابا الطيب ، يجب ان نمضي مع هذه القصيدة الكبيرة بكل ما كان يعتمل ويجوب في نفسك الكبيرة الحزينة في طريق العودة ••• عودة بلا ظفر ••• فلنأت على نقاط الشجن الموجعة وهي تتتالى واحـدة بعـد اخرى مثل بقعة ممتدة ، متقاطعة على امتداد ماض سحيق :

« لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي
شـيئا تتيمـه عـين" ولا جيـدُ

يا ساقيي ، اخمر في كؤوسـكما
ام في كؤوسـكما هم وتسـهيدُ ؟

أصخرة انا ؟ مالي لا تحركني •••
هذي المـدام ولا هـذي الاغاريدُ

اذا اردت كميـت اللـون صـافية
وجدتهـا وحبيـب النفس مفقـود

ماذا لقيـت من الدنيا ؟ واعجبه :
اني بما انا شاكٍ منه ـ محسود !

أمسـيت اروح مثر خـازنا ويـدا
انا الغنـي واموالـي المواعيـد !

انــي نــزلت بكذابــين ضــيفهم
عن القرى وعن الترحــال محــدود

ولـكن لماذا يا سيدي ؟ ... لماذا نزلت بكذابين ... ستقول لأن :

جود الرجال من الايدي وجودهــم
من اللسان فلا كانوا ولا الجودُ

فأنت في هذه القصيدة في عنفوان الآلم ، ذلك الألم الذي يأتي مــن تراكم الحزن الذي ينبعث من التناقضات الحادة التي تكون احيانا من القوة بحيث لا نجد أمامها الا التأمل ومحاولة الثبات في حين تبدو الهزيمة محتومة.

مع ان اشعار الحزن لديك او الاشعار التي تستلهم الحزن قليلة الا" ان هذا القليل يرتفع الى مرتبة عالية جدا . ان هذا الحزن المشوب مرة بالخيبة واخرى بالضعف يطور القصيدة الى حركة صاعدة من البداهة والعفويــة الى منطق العقل لاقناع النفس بأنه ما من شيء يستطيع قهر ما تفرضه علينا تناقضات تبدو ازلية مع كونها مفارقات فجة او باعثــة على الاشــمئزاز في معظم الأحيان لهذا فأن هذه القصيدة تعتبر من عيون ما في ديوانك من شعر ... فاذا تجاوزنا السخط على ما سبب لك كافور من خيبة امل والعودة وحيدا شريداً فانها تعتبر مجابهة ضد القدر المفروض في وجود التناقــض بوجود كافور وكافور الفرد ليس سوى النمــوذج الذي يجعله القهر كبيراً في حين تراه العين بعد خلع ثوب الاجلال عنه ... عاريا الا" من جلدتــه ولهذا فأن المعايب المخبوءه تحت سطوة المال او الجاه تبدو شيئا مثيرا امام العين الثاقبة ...

نحن خلال مرارة الفشل في امان لم تتحقق تراك اكثر جهوريــة في الصوت وحدة في المجابهة ، ولكي تكون انت موجودا ، شاعرا بوجودك المؤكد لابد ان تجابه قوة كبيرة . ان هذا التحدي يخــلق لديــك وهمــا بالتوازن ... وعند التوازن ، وجها لوجه تستطيع ان توجه الضربــة ... ولابد ان كافورا يا ابا الطيب كان عملاقا فظل صامدا أمام ضرباتك ... كان

يملك السيف وانت تحاربه بالكلمات ... تزعجه ، تجعل خصومه يضحكون عليه ولكن دون ان يحرروا انفسهم من قوة بطشه .

ستقول ، لقد تصدأ سيف كافور وضاع له اى اثر فلا قبر له في ثرى مصر او السودان او الحبشة ... فاتك مريع فتك به الزمان وبقيت انت حيا مواصلا تجره وراءك جرا على سيل من السباب المقذع ، تلوح به من جيل الى آخر كنموذج ناقص لقاعدة هشة لهرم كبير ... وانت تمشي، تقاتل في كل جيل مع التناقض المثل ، التناقض الذي وقف انموذجا غير متطور أكثر من الف سنة الى ان تجيء مباديء علمية جديدة وتنظيمات سياسية وفكرية لتحول دون تكرار مأساتك مع كافور كنقيض معاد لاحلامك ... كسيد في طبقة مضطهدة .

ان مثلك هذا يا ابا الطيب مثل صغير لا مثلة كبيرة ولكنك اذ تمسك به بخصومة شخصية تجعله قضية الدهر ... فتلعن الدهر وهو قوة موهومة اصلا فليس الدهر غير اسم ... غير مرحلة غير متجانسة في طريق التطور ... ولهذا فان كافورا بالنسبة اليك منذ تلك الأيام نقيض العدالة ... فما هو عدل في نظرك ان لا يكون كافور حيث كان ... اي ان نظرتك اليه كنقيض لآمالك لم تظهر هكذا الا بعد ان خيبها تماما ... في حين انه كحاكم نقيض لارادة من كان يحكمهم ... ولكن نظرتك اليه واعذرني في هذا يا ابا الطيب كانت شخصانية ، لقد تحوّل في نظرك الى بديل سيء ، الى نقيض للطيب ليس بسبب من حركة التاريخ وجوهر تطوره المرحلي بل بسبب شخصي محدود الأفق اي بما يشبه خداع البصر ... ومع ذلك فأن مثلك الصغير يبقى كبيرا لانه مطوق بقصائد ذات مزاج صفراوي سريع الدوار ... فهل هذه القصيدة بالذات هي كبرى احزانك وهمومك الشخصية ؟ من التجني ان اقول نعم فأن هناك قصائد اخرى مثلها حرارة وصخبا وانسانية !

ان روح الغضب على مالا يلائمك هو النقيض الأول لديك ... كل من يحتك بك او تحتك به فلا يعتذر بطريقة تلك الأيام ، بالهدية المرموقة يتحول الى معاد ، الى نقيض متغير الى الاسوأ مع الزمن !

وهذه اخرى ، وليدة من قصائد الحزن بنت تلك اللحظات المريرة التي تقوى على ان تشق ليس الصمت حسب بل الضغط الذي جعلها مكتومة ردحا من الزمن . فأنت تقول ، مشخصا بصورة جدلية تقريبا من تنازل ، اى من النقيض الذي يقض مضجعك فردانيا

« اطاعن خيلا من فوارسها الدهر
وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبرُ
واشجع مني كل يوم سلامتي
وما ثبتت الا وفي نفسها امرُ
تمرست بالآفاق حتى تركتها
تقول امات الموت ام ذعر الذعرُ !!
واقدمت اقدام الأتيّ كأن لي
سوى مهجتي او كان لي عندها وترُ

سلاما ايها الصديق الكبير من خلال هذه الرفقة الماجدة فلنقف مع هذه الابيات قليلا لانها شواجن مرهفة فأنت اذ تقول :

اطاعن خيلا من فوارسها الدهر
وحيدا ، وما قولي كذا ومعي الصبر

ترتد الى تلك الروح الباسلة للرجل المقدام في وحشة القدر او في مواجهة ايام كالحة بالغة القسوة فلا تكاد ترى نفسك وحيدا في مطاعنة خيل من فوارسها الدهر حتى تتذكر انك لست وحيدا مادام معك «الصبر» اي انك تجد نفسك اقدر على مطاعنة خيل من فوارسها الدهر وفي هذا شيء اكثر من التصبر شيء يمكن ان يكون بثا للشجاعة فان الصابر ظافر في النهاية ... ثم تواجه الشيء الأخر فأنت الآن اولا ومعك الصبر ثانيا وثمة ثالث في المطاعنة هي « نفسك » التي تراها اشجع منك في صورة «سلامتك» من الردى وانت منه في المواجهة عند الصميم ومع ان سلامتك مدعاة فخر

فانك ترى فيها شيئا يدعو الى الريبة ذلك انك ترى في ثبات هذه السلامة من الردى انما هو لأمر في نفسها ••• وربما لا يسرك ان تكون نفسك في سلامة وانت في مطاعنة الدهر وتنثني لتؤكد من أنت وليس هذا بجديد حتى يخيل الينا من طول التوكيد على انه شيء اصيل فيك لا مبالغة فيه فأنت اذ تقول :

تمرست بالآفات حتى تركتها

تقول امات الموت ام ذعر الذعر !

فلأن لك ممارسة طويلة في اقتحام الافات بالمواجهة دون تردد حتى تندهش الافات من اقدامك ويخيل اليها ان الموت مات او ان الذعر نفسه قد ذعر منك •••

ان الافات بالنسبة اليك هي كل المنغصات التي وقفت في طريقك بالتأكيد انني لا اريد تفسير شعرك فلقد اختلف فيه الكثيرون وكل من فسره خرج بما يخالف من سبقه او خالفه ولكن نظرتي هذه المرة معاصرة اكثر لانها بعيدة عن نظرتهم •••

ومع ان في هذا البيت بالذات شيئا بارزا من الخيلاء فأن الممارسة تعطي المقتدر حق الزهو فبماذا تمرست بالافات ؟ •••

اعتقد ان الجواب السليم هو انك تمرست بالافات ليس لطول مجابهتها حسب بل بالحيلة الذكية في التغلب عليها • وهذا يعني في نهاية الموقف انك احتلت بالذكاء والدراية على افات كثيرا ما طوقتك فأفلت من طوقها كما المصارع الماهر الذي ينازل سيافا وهو اعزل •

ولكني كنت اتحدث عن الحزن في شعرك ، هذا الحزن الموحي فتجاوزته ، والحقيقة انك انت الذي ابتعدت بي عن الحزن الذي خامرك اول القصيدة حين تحديت الحزن بالزهو والغلبة •••

ان الأمر سيان ان كان تمرسك بالآفات قد منحك قوة داهية للخلاص

من المآزق ام قوة فوارة من قوى الفروسية التي لا تجعل الحيلة في المكان الأول من اهدافه وتبدأ نصائحك :

« ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمفترق جاران دارهما العمرُ
ولا تحسبن المجد زقا وقينة
فما المجد الا السيف والفتكة البكرّ
وتضريب اعناق الملوك وان ترى
لك الهبوات السودُ والعسكر المجرُ
وتركك في الدنيا دوّيا كانما
تداول سمع المرء انمله العشر

ودون ضجة كبيرة

وبمهارة معروفة لديك يا ابا الطيب تخرج من هذه الصورة الرائعة بل العديد من الالواح الفكرية لتأخذ الطريق الى المديح لـ « علي بن احمد ابن عامر الانطاكي » ولا يهمني ما قلت فيه فتلك قضية اخرى ، انما استوقفتني البداية المزهوة بكبرياء الرجولة فيك يا ابا الطيب ... هذه الفحولة التي تمهد للولوج الى مدخل آخر ...

فأنت تبرق بهذه الصورة وبهذه الاصوات المجلجلة امام ممدوحك ، تعرفه بنفسك لكي لا يبخس شيئا من قيمتك ...

وعندي ايضا انك في هذه الاستهلالات الشجية حينا والحكيمة حينا آخر تعطي القارىء صورة عن الشخص الذي تقول فيه ومع ان الابيات التي تتوالى بعد المطلع هي متينة دائما ، مدحا او قدحا فأن قوة المقاطع الاولى تظل هي المدوية في النفس ... ويخيلّ الي احيانا انك تريد ان تقول بتلك الاحزان المبثوثة بحكميات صارمة التأويل والاداء ـ انك مضطر لتقول ما لا تؤمن به متهما بذلك مسبقا جبلة زمن قبيح تشبعه لوما وتقريعا اولا ... وكأنك تبحث في المقدمة عن عذر لما تقول في المؤخرة ... ولهذا

تجيء مفتتحات قصائدك ذات نبرة حادة وكأنها الفواصـــل الاساســية في ملحمة قادمة يجب ان تؤخذ حقائقها في حذر ...

وفي حمص وانت في السجن تحاول ان تجد لنفسك عذرا وخلاصا وتترفع عما انت فيه ، فبدلا من ان نجدك متداعيا كما يحصل لمعظم السجناء نراك تسخر من سجنك فتقول للسجن في منطق معقول

لو كان ســكناي فيــك منقصــة
لم يكن الدر ساكن الصدف ...

وكالعادة فأنت الأعلى ، انت في السجن درة في الصدف لأنــك ساكن فيه ... السجن قشرة وانت اللب مع ان قسوة السجن بالنسبة اليك لــم تكن لتطاق ...

سمعا وطاعة يا ابا الطيب ، مشغول أيضا ويجب ان ترحل ... هل تحركت في ذهنك قصيدة ؟

ــ لا ... سأشد الرحال ...

ــ الى اين ؟..

ــ اقرأني في الديوان ...

ــ سأقرأك ... ولكني اعرف ، كن حذرا فأن الاعداء يتربصــون بك ...

ــ ومعي سيفي وغلماني ...

ــ الى فارس اذن ...

ــ ربما ...

ــ وعلى حصان ؟...

ــ نعم ...

ــ وانت فيها ، في شعب بوّان ! ...

ــ اوه لا تكثر من الأسئلة .. مع السلامة ...

ــ شكرا لك يا ابا الطيب . هل اقول الى اللقاء

ــ لك ان تقول ذلك .

اللقاء التاسع

ـ من الطارق ؟

ـ انا ...

ـ تفضل بالدخول ... اهلا يا ابا الطيب لقد شرفتني مبكرا ، ما اسعدني بك !

ـ لقد سعدت بصحبتك ، وجدت لديّ فسحة في الوقت ، قلت لأذهب اليه وها انذا

ـ ها انتذا مكرما تنزل ، هنا وسادتك ، مجلسك الصدارة يا ابا محسد ...

ـ ادامك الله ، ان الرجل من يحسن اختيار صحابته ..

ـ سعيد انا بلقياك ... وعن محسد اردت ان اسأل ... ليس معك ؟ ...

ـ اريد ان اعوده على مجالستي فينكص ...

والاراذل منها ...

ـ محسد شاب يملأ العين ، اردت ان اقول هل الشعر بغيته ؟ ...

ـ لا ... انه يهوى الخيل ، له علم بنسبها ، يعرف الاصائل

ـ حسبه هذا الآن ... في هذه السن لابد ان تكون للشاب غيته

ـ ولكني في مثل سنه ...

ـ الابناء كثيرا ما يختلفون عن الاباء يا ابا محسّد

ـ على ان يختاروا الافضل ...

ـ أولم يختر بعد ؟
ـ لم يختر ...
ـ لانه في كنف اب جواد ، قوّال صوال ومن تكن انت ابوه ... يكون العالم الضخم جده يا رعاك الله ...
ـ افكر به كثيرا يا صاحبي .
ـ ستترك له مايكفيه بعد عمر طويل ...
ـ كل شيء ينفد يا صاحبي اذا لم يكن هناك ما يزيد فيه ...
ـ اتعني يا ابا الطيب ، انك ستروض ابنك محسدا على مهنة عيش ...
ـ سأستصحبه معي ...
ـ مع فارس ...
ـ نعم وله مكنة على ادارة الركب
ـ وحدك يا ابا الطيب في هذه السفرة البعيدة ؟
ـ معي بعض غلماني ... وان كنت تعودت الترحال وحيدا ... سيتعلم محسد في هذه الرحلة ركوب الاخطار ...
ـ من يركب الخيل يا ابا الطيب ، يركب المخاطر ...
ـ لا يا صاحبي ... من يحمل السيف يركب المخاطر قاتلا او مقتولا ... ان ظهور الخيل مراكب ذلول ...
ـ واذا عدت مع ما تتأمل من مال وافر
ـ سأسكن الى الموادعة .
ـ ومحسّد ...
ـ هذا هو شاغلي ...
ـ اذن اشتر له شيئا من السواد ان الارض ولود لا تكف عن العطاء ...
أأنت غاضب يا ابا الطيب لانني اقترحت هذا عليك ؟
ـ نعم ... ان الارض منشدة الى الخمول ، لن يبرحها ...
ـ ولماذا يجب ان يبرحها ، هو ليس انت ...
ـ ولم لا يكون ؟ ...

ـ هذا مزاج • جاء ووراءه اب يملأ الدواوين والمدن بضجة الادب •••

ـ وليس من ورائي اب •••

ـ كنت قبيلة وحدك من انبل الاباء يا ابا الطيب

ـ عزائي في هذا ••• واذ استرحت قليلا

فلنترك الحديث عن محسّد المشغول باصائل الخيل •••

عندما جئت وجدتك تكتب في قرطاس ، ماذا كنت تكتب يا صاحبي•••

ـ اكتب ما نسميه هذه الايام بالمذكرات •••

ـ لانكم تنسون •••

ـ نعم وبعض ما نعرف من أحداث الحدثان يجب ان يدون ••• وهذا ما نسميه احيانا اخرى بـ « اليوميات »

ـ شيء لطيف • هذا يشدكم الى القرطاس لئلا تغتربوا عنه •••

ـ وانت ايضا كنت تكتب اليوميات يا ابا الطيب

ـ انا اكتب يوميات ؟

ـ نعم ، من حيث لا تقصد ، لم تكن لك يوميات منظمة ولا دفاتر منسقه ••• ولكن يا ابا الطيب كانت لك مع ذلك يوميات •••

ـ ارنيها ••• قل واحدة منها ••• ذكرني بها !

ـ المعذرة يا ابا الطيب فأنتقوي الذاكرة لكن التسميةعصرية وجديدة ••• ان كل قصائدك القصيرة من بيتين الى العشرة هي يوميات سريعة ، تسجل وقفة او خاطرة مع اثار ذلك اليوم

ـ يا لك من رجل يا صاحبي ، آتسميها هكذا ؟

ـ هي هكذا يا صاحبي الكبير ••• هي هكذا

ـ ارنى واحدة مما تسميها يومياتي •••

ـ ليكن ذلك ، دعني ابحث عنها في الديوان

ـ افعل ما ترى •••

ـ ها هي ، وجدتها ، هذه واحدة

« ماذا يقول الذي يغني ؟

يا خير من تحت ذي السماء

شـــغلت قلبـي بلحـــظ عينـي
اليـك عـن حسـن ذا الغنـــاء

ـ اواه يا صاحبي ، افهذه يومية ؟

ـ نعم هي كذلك فأنت في مجلس غناء والمغني في اوج مالديه من اداء لفنه تنشغل عن غنائه بالنظر الى السيد صاحب المقام والمهرجان ، تؤكـد له بهذه اليومية انك لا ترى الدنيا كلها الا من خلاله هو ...

ـ عجيب ... انت تفهم شعوري اكثر من شعري

ـ نعم ، هذا حق ، احيانا تستعصي علي بعض ابيات او اشطار من شعرك لا افهمها ... ابحث اجد لها بعض المعاني التي لم تقصدها

ـ اذن لماذا لا تسأل عنها من هو الاعلم بها ؟

ـ ليس هناك من هو اعلم بها ... لكل امريء من هؤلاء تفسـيره وهذا هو سبب الضجة ، وما دام الامر كذلك فليكن لي تفسيري وفق فهمي ما دمت لا اسيء بذلك فيه ، اليك ...

ـ لقد اقنعتني ...

ـ استمددت ذلك منك . كنت قوي الحجة تقنع بما تقول ـ الملوك والصعاليك ...

ـ نعم ، بخ لك ... بخ ... بخ ... انما كنت اقنعهم حينما اقول فيهم ما فيهم ...

ـ كلا سيدي ، ليس كل ما كنت تقول فيهم كان فيهم . بعض مـا قلت كان يزيد على ما فيهم ...

ـ انت على حق ، اذن كنت اقنعهم لانني كنت ارضيهم ... يصدقون ان فيهم ما اقول وهو ليس فيهم فالناس اغرار يا صاحبي ! ...

ـ وقد عرفت ناس عصرك يا ابا الطيب

ـ وهل اختلف ناس عصرك ... للكف اصابعها الخمســة ... ام انك ...

ـ دعنا من هذا يا ابا الطيب ، لنبحث بين مبثوثات ديوانك عن يومية اخرى .

ـ افعل ...

ـ ها انذا امام اخرى ... ترتجلها علانية

ـ لأحبتـي ان يمـلأوا
بالصـافيات الاكـؤكوبا
وعليهـم ان يبـذلوا
وعلـيّ ألا اشـربا
حتـى تكـون الباتـرات
المسـمعات فأطربـا

ـ كيف وجدتها هكذا ؟! ...

ـ اعرفها منذ زمن بعيد ، متى قلتها ؟ ...

ـ في مجلس انس ، دعيت فلبيت ...

ـ ولكنك امتنعت ... الا تشربها وانت تصفها صافية في الأكؤب...

ـ اشربها حينا وانبذها حينا ... نبذتها في ذلك المجلس ...

ـ ألم يعجبك المجلس يا ابا الطيب ؟ ...

ـ اعجبني ونغصني ...

ـ نغصك الشمم ... ترفعت نفسك عن سماع الطرب لماذا ؟ ...

ـ اجب انت عن ذلك

ـ لانك لا تطرب لرنين الاكؤب بل الى رنين السيوف الباترات ...

ـ هذا حق ...

ـ ومثلك بعض تأخر عنك ...

المعذرة انت لا تعرف من هو نابليون بونابرت

ـ لا اعرفه ...

ـ لقد جاء متأخرا عنك باكثر من ثمانمئة سـنة ... وكان فارسـا من نوع آخر . كان ايضا مثل صاحبك سيف الدولة يقود اللجب من الجيش وفي معركة واترلو وهي واحدة من ملاحمه الحربية كانت الموسيقى تعزف مشجعة الجنود قبل دخول المعركة وعندئذ صرخ نابليون بقائـده الاكبـر « اسكتوا الموسيقى لنسمع اصوات المدافع » وسكتت الموسيقى وأرتفعت أصوات المدافع هلك المال والولد ... وانهزم نابليون ...

ـ هذه اشياء جديدة لا اعرفها

ـ لو عشت معنا لعرفتها ••• ولكن البطولة لها ثوب واحد •••
فأنت ايضا كتبت في يوميتك تلك انك لا تشربها ولا تلهو بطرب مطربه
مجلسها لانك تتوق الى صليل الباترات

ـ هذا حق •••

ـ واذا كانت النفوس كبارا

ـ نعم ، نعم :

تعبت في مرادها الأجسام

ـ زدني بصوتك من شعرك يا سيدي

ـ طيب • هاك اخاه :

ذل من يحسد الذليل بعيش

رب عيش الذّ منه الحمام

ـ اواه اوآه ، ما اصدق هذا ولكن الحياة مازالت عزيزة

ـ ليس مع الذل يا صاحبي •••

ـ بعضهم يستسيغها

ـ وفي هؤلاء قلت هذا البيت

ذل من يحسد الذليل بعيش

رب عيش الذّ منه الحمام

ـ بورك فيك •••

ـ هل من مزيد ؟ انك تذكر امامي بعض ما تسميه من يومياتي ما
يوقظني على زمنها •••

ـ اذن فهاكها ••• هذه آخرى •••

هذه المرة كانت يوميتك غاضبة فهي مليئة بمرارة الهجو ••• كان
ذلك في صباك ولابد ان القاضي الذهبي قد اغضبك وعذلك كثيرا الى ان
جعلك تقول فيه :

لما ُنسبتَ فكنت ابنا لغير أب

ثم اختُبرتَ فلم ترجع الى ادبِ

سميتَ بالذهبيّ اليومَ تسميةً
مشتقة من ذهاب العقل لا الذهب

ملقّبٌ بك ما لقب ويك به
يا ايها اللقب الملقى على اللقب

ـ واها ـ واها لتلك الأيام ...

ـ وماذا قال القاضي الذهبي اللقب حين عرف ما قلت ؟

ـ تأدب عليّ ...

ـ اخذ من ادبك ...

ـ ـ اخذ ما يوقفه عند حده ...

ـ ولم يثأر ـ بحفيظة ضدك ...

ـ كان اجبن من ان يفعل ...

ـ فهذه هي اليوميات يا سيدي ابا محمّد ... هل لي ان اقرأ يومياتك الاخر ؟

ـ لك ان تفعل ان شئت ...

ـ اذن هاكها ، هي الاخرى مثل ما سبقها يالها من يومية تاريخية تدون بها صورة لملوك عصرك هل تذكر متى قلت هذه الابيات ؟ دعني اذكرك بها لقد كانت جوابا مرتجلا في وجه ابي سعيد المجيمري الذي عذلك على تركك لقاء الملوك ... فقلت له على الفور :

« ابا سعيد جنب العتابا
فرب رأى اخطأ الصوابا

فأنهم قد اكثروا الحجابا
واستوقفوا لردّنا البوابا

وان حد الصارم القرضابا
والذابلات السمر والعرابا

ترفع فيما بيننا الحجابا

لو تدري يا سيدي كم عظمت في نفسي وانا اقرأ هذه الابيات القصيرة

المرتجلة دون افتعال او مصانعة ، لقد تركت الحقيقة تبرز ليس كحجة لك بل كعلامة على علو منزلتك في نفسك فلقد تعودت ان تدخل ابهاء الملوك طليقا دون ممانعة ••• كنت تشعر حين تفعل ذلك أنهم ليسوا اعلى منك شأنا سوى قوة الملك ومال الخراج •••

فلما اختلفت الصورة معك ، لما صار لهم حجاب يمنعونك وسواك عن مواجهتهم ضربت كشحا عنهم واستغنيت عن زيارتهم طويلا ، زاهدا بالجوائز لان نفسك كانت اغلى من كل جائزة تأتيك مع الهوان • وكان الهوان في نظرك ان يردك حاجب عن لقاء ملك ومعك له سلام او قصيدة ولابد ـ كما افهم من هذه اليومية ، أن غيبتك عن محضرهم قد طالت حتى شكوهم من طول نأيك عنهم ولم يعرفوا السبب ولو عرفوه لفتحوا امامك الابواب دون سواك ولتلقاك الحجاب بالترحاب ••• اقول هذا لأن من نقل اليك العتاب او عاتبك انما سمع العتاب من الكبراء والملوك بحكم منزلته واجماعه الرسمي بهم وهكذا نحن نرى مرة اخرى كيف انك جعلت مهنتك عزيزة لا ينال عطاءها الا مستحق له والمستحق له هو من يعرف قيمة نفسك وان لم يفهم مرامي شعرك وادبك •••

ـ هل لي بأخرى ، ها انت تجعل من اشعاري حجة اخرى وكأنك تفهم ما كان يجول في نفسي يوم قلت في هؤلاء وهؤلاء ما قلت •••

ـ ليكن ذلك يا صاحبي والديوان في متناول يدنا اذا ما اخفقت الذاكرة فها انت ذا تقول للصديق الذي عتب عليك لانه سلم عليك فلم ترد عليه السلام :

« انا عاتب لتعتبك
متعجب" لتعجبك !
اذ كنتُ حين لقيتني
متوجعاً لتغيبك
فشغلتُ عن رد السلام
وكان شغلي عنك بك •••

فلقد حولت عتبه عليك الى عتبك عليه بتلك السلاسة الرقيقة التي

عرفته فيها بسكاته من قلبك ••• فعزوت عدم الرد بالسلام عليه الى انشغالك بغيابه عنك ••• لانك كنت تفكر به •••

ومثل هذا مع اختلاف في الواقعة حدث لرجل من عصرنا اسمه جورج برناردشو ••• لم يكن شاعرا ولكن كانت فيه كل لوذعية الشاعر المر ••• كان يؤلف الملاحم التي نسميها اليوم بالتمثيليات ••• والعداوة قديمة بين الشاعر والناثر وبين الناشر اي البائع لشعر الشاعر ونثر الناثر •••

ذا يوم اجتمع جورج برناردشو هذا على مائدة عشاء فخمة كان فيها الناشر الى جواره فلازم جورج برناردشو هذا ، لازم الصمت فوجد الناشر ان يناله بسذاجة فقال — انك تفكر كثيرا بشيء ما مسترشو ••• قال — شو، نعم ••• افكر بشيء ما •••

قال الناشر — مهما تكن قيمة ما تفكر به فلا تزيد قيمته عن شلنين اثنين ••• اى دانقين

فقال برناردشو بلهجته الساخرة والكل يصغون اليه

— نعم ، ان الأمر هو هكذا أن من كنت افكر به هو أنت ، وانت اعرف بقيمتك •••

وهكذا تلتقي العقول الكبيرة مع المفارقات بأختلاف الظروف فأنت لم ترد السلام على صاحبك لانك كنت مشغول الذهن بتفقدك لغيابه وهذا اجلال عظيم له في حين كان برناردشو يفكر ايضا طوال الوقت ليس بغيبة صاحبه الناشر وهو يكرهه بل بقيمة هذا الناشر الطفيلي في الحياة على ادب الادباء •••

فهذه الابيات القصار يا ابا الطيب هي التي يجب ان تدرس اكثر وتحلل اكثر ، ليعرف ما وراء ذلك من مغلفات منعها الظرف او حال دونها الحياء لا ان تدرس مطولاتك الواقعة تحت محاكمة العقل والصقل طويلا وهي مدونة ومنقحة في حين أن قصار الابيات هي الاجنحة القوية للوصول الى ما نريد ان نعرف مما لا نعرف فيك حتى اليوم •••

وما دام هنالك مزيد من هذه اليوميات فأنه ليجمل بنا ان نقف عند معظمها اذا لم تضق ذرعا بما اقول •••

ـ لن اضيق ذرعا بما تقول ..

ـ اذن هاكها جديدة كاخواتها : فها هي يومية موسمية فعلى ما يبدو من القصيدة ولابد انها مرتجلة ، ان الموسم كان ربيعا فأنت تقول وقد جلس صاحبك المكين يلعب الشطرنج وقد كثر المطر فوجدت ان تدّون ذلك في يومية من يومياتك الحرة الطليقة من القيود

الـم تـر ايهـا الملـك المرجّـى
عجـائبَ ما رأيـتُ من السحابِ
تشـكي الارض غيبتـه اليـه
وترشـف ماءه رشـف الرضـابِ
واوهـم ان في الشـطرنج همـي
وفيـك تأمـلي ولـك انتصـابي
سـأمضي والسـلام عليـك مني
مغيبـي ليلتـي وغـدا ايابي ...

هل كنت تفهم في الشطرنج يا ابا الطيب ؟ اعتقد ذلك لان اللعبة ايضا كانت من لعب الكبراء ولن تتخلف عنهم في بعض ما يحسنون ولكنك متعب فلقد طال سهر الأمير وهو منهمك باللعب وقد اشتد تهطال المطر ... ولابد ان بيتك في حي كندة من الكوفة ـ اذا كانت الواقعة في الكوفة ـ لابد ان بيتك كان بعيدا وخشيت من اشتداد المطر فأنتصبت من جلستك مستأذنا بالانصراف ومعك العذر بأن غيبتك لن تطول سوى ليلة فأنت آئب اليه غدا ... ولابد ان الرجل كان يستطيب معشرك ويلوذ بهمتك ومعرفتك فأنت كما ارى كنت كثير الترداد عليه فلا تفارقه في ليل حتى تأوب اليه في نهار ...

وماذا في يومياتنا الجديدة غير هذه الهموم الشخصية في وصف ما نكون فيه او تتأثر به او نغضب عليه وها انتذا تقول في واحدة من قصائدك وانت امام طاهر العلوي وقد اشار عليك بالمسك تتطيب به

« الطيـبُ بمـا غُنيـتُ عنـه
كفـى بقـرب الأمـير طيبـا

« يبنـــي بـــه ربنـــا المعـــالي
كمـــا بكـــم يغفـــر الذنوبـــا ...

ومع المبالغة المقبولة في وصف الأمير الذي به اوعن طريقه يغفر المولى تعالى ، الذنوب فأن حسن التخلص المرتجل كان في الشطر الذي قلت فيه

« كفى بقرب الأمير طيبا »

« فما لاحد من حاجة للطيب والأمير يملأ ما حواليه طيبا ربما بكثرة ما يتطيب به من طيب المسك ، ام اردت المجاز بطيب ما يملك من خلال !

وهاكها يومية اخرى طريفة ، هل تذكر متى قلت ذلك ؟ قلته مرتجلا وانت في مجلسك وقد جيء ببازي ادهشك بلمعان عينيه

أيـــا مـــا احيســـنها مقلـــة
ولـــولا الملاحـــة لـــم اعجـــبِ
خلوقيـــــة في خلوقهـــــا ...
ســويــداء من عنــب الثعــلبِ !
اذا نظـــر البـــاز في عطفـــه
كســـته شـــعاعا على المنكـب ...

فوالله لقد هززتني بهذه الابيات القليلة كما لم تفعل الا قليـــلا به .

ــ كيف ... ابوصفى للبازي وهو سيد الطيور وانا احبها لعزتها؟..

ــ نعم ... ولوصفك الفريد في مقلة الباز الخلوقية فأنت تقول اذا ما التفت الباز بتلك المقلة ونظر في عطفه ، كسته تلك النظرة ضوءاً سكبه على المنكب فشع له هو الآخر شعاع

فياله من باز سعيد وله كل تلك النظرة التي تفيض بالشعاع على منكبه اذا ما نظر في عطفه ! فهل هناك من سبقك في مثل هذا الوصف ؟ لا ادري فانا لم اقع على من قال مثل هذه القولة بين القائلين ممن قرأت لهم واعجبت بهم فهذا الوصف واحد من بعض يتيماتك لتفردك بها ...

ــ وأيضا ؟

ــ وايضا يا سيدي ...

وانت مع سيف الدولة في طريقكما الى الرقة وقد زاد المطر فوجدت ان تدون ذلك في هذه اليومية

تجـف الارض من هــذا الربــابِ
ويخلــق ما كَســاها من ثيــاب
وما ينفــك منــك الدهــر رطبــا
ولا ينفــك غيثــك في انسكاب !
تســايرك الســـواري والغــوادي
مســـايرة الاحبـــاء الطـــرِاب
تفيــد الجــود منــك فتحتذيـــه
وتعجــز عــن خــلائقك العــذاب

افراحل انت ؟ ... مع السلامة اذن وثانية اقول الى اللقاء ...

اللقاء العاشر

ـ سلاما عليك مني هذه المرة
ـ اهلا بك ، كيف انت ؟
ـ أمزمع سفرا ؟ ...
ـ أألى فارس ؟...
ـ نعم ... لقد دعيت فلبيت ، ان بلاد فارس جميلة وفيها من العرب الاقحاح من هم جديرون بالحمد ،
ـ نعم ... فيهم اقحاح القادة وسراة القوم ، تفضل
ـ اشكرك ، اعتقد ان هذه الزيارة هي الاخيرة
ـ ولكنك اذ تعود ، سنلتقي من جديد
ـ من الجائز ...
ـ لا تكن متشائما يا ابا الطيب ...
ـ ومن عرف الايام ...
ـ عرف غدرها ، الا تريد ان تقول هذا يا ابا الطيب ... ولكن ما الأيام يا سيدي . اننا نحن البشر نصنع ما فيها من خير وشر وأذى فالايام زمن طويل متصل .
ـ اعرف هذا ، فانا حين اقول الأيام ، اعني ناسها ولكن دعني اسأل، وجدتك تقرأ
ـ نعم ... في ديوانك ...
ـ وماذا وجدت فيه ؟
ـ يوميات اخرى ...
ـ يومياتي ...
ـ ان هذه الابيات القصار حين تدون دون اعمال ومحاباة او مخافة

هي اصدق ما لديك قد لا تكون هذه الاشعار من اجود ما لديك ولكنها دائما من اصدق ما لديك ...

اتريد ان تسمع ...

ـ تفصل ... انك تختار ما يلائمك ...

ـ الاختيار عملية انتقاء ولكن عندما يكون الأجود هو السائد لايبقى مكان للأختيار والانتقاء ... دعنا معك :

فأنت وكافور ايضا ، دون لف ومد ومصارعة فهذه يومية عنه في يومياتك من ثلاثة ابيات

« واسود آما القلب منه فضيّق"
نخيب واما بطنه فرحيبُ
يموت به غيظاً على الدهر اهله
كما مات غيظاً فاتك" وشبيبُ
اذا ما عدمت الاصل والعقل والندى
فما لحياةٍ في جنابك طيبِ

فهذه الثلاثية يا ابا الطيب قد اعطتنا جديدا عن كافو ، ليس لونه الذي نعرفه بل سمة جسمانية اخرى فأنت تقول عنه ان صدره ضيق وصدر جبان ما دام النخيب هو الجبان وحين تصل الى « بطنه » تقول « واما بطنه فرحيب » ومن هذا عرفنا كافورا بدينا « بطنيا » ، رحب المعدة ولابد انه كان عملاقا ذا قوة جسمانية فلو كان قزما لأصبح بتلك البطن اضحوكة ولما نسيت فيه القزامة لو كان كذلك . وبهذه اليومية عرفنا كافورا معرفة جسمانية ولولاك لما عرفنا ذلك فأنت الذي جعلته دائم الوجود على افواه الناس ...

وانت اذ تهجره عائدا الى وطنك الجميل العربي القوي الى العراق فلأن الاقامة في جنابه لم تعد طيبة لانك اكتشفت فيه « انعدام الاصل والعقل والندى » ان هذا الثالوث البغيض فيه جعل الحياة في جنابه لا تطاق ...

ـ احسنت ، لقد فهمتني بصورة جيدة ...

ـ انني افهمك منذ اعوام على هذه الصورة فأحبك تارة واقليك تارة واسمع يومية اخرى من يومياتك المتناثرة في الديوان •••• فأي امير سعيد كان هذا الذي قلت فيه هذه الابيات حين اراد ان يكرمك جوادا من اصائل الخيل وطلب ان تتخير لون الجواد فقلت له مرتجلا بأحسن مافي حسن البداهة من لباقة

« فدتك الخيلُ وهي مسومات"
وبيض الهند وهي مجرداتُ
وصفتك في قوافٍ سائراتٍ
وقد بقيت وان كثرت صفاتُ
افاعيل الورى من قبل دُهم"
وفعلك في فعالهم شتاتُ

وهكذا انت دائما

في قمة الذكاء حين تطلب ، حين ترد وتصد ، وحين تعطي ، حين تأخذ ••• فلقد اردت منه باشارة لماحة جوادا ادهم من الخيل ••• وهلك الجواد وانتهى الأمير الذي نجهل حتى اسمه وبقيت انت وهذا هو سر خلود الفاعلية المتصلة مع الحياة •••

ـ اني احب الجياد ، وقد ورث هذا عني ولدى المحسّد ياله من حب، ان الجياد مخلوقات كريمة •••

ـ وعن المحسّد ابنك •••

ـ ماذا به مرة اخرى ؟ ••

ـ لاشيء ، له ان يهوى ولك ان تسهم في تحقيق ما يهوى ••

ـ ما استطعت •••

ـ تستطيع ولكني اردت أن اسأل كيف اخترت لأبنك هذا الاسم ؟•• اسم « المحسّد »

انك تبتسم ••• في الأسم شيء من الزهو فأنت حين اخترت ذلك تصورت انه سيكون محسّدا بين فتيان عصره ورفعة صباه •••

محسدا سيكون على اشياء كثيرة منها النعمة الموفورة والغلمان في الخدمة واصائل الخيل في المرابط والخيلاء التي يرفرف عليه بأعرض سمعة لأب رائع الصوت مكين ..

ـ اشكرك كثيرا ... لقد كان هذا في بالي ... وماذا بقي معك ؟...

ـ بقي الكثير ولكن القليل منه يكفي فهذا انت في موقف آخر ، في يومية اخرى تقول في مجلس انس ولهو وشراب لا تقل انك لم تشرب الخمرة بل انك شربت الكثير منها لانها كانت تدار على القوم بسخاء بأيدي الجواري الحسان وقد وقفت واحدة منهن حذاءك ، اطالت النظر فيك ، ربما حرضها سيدها كي تتحرش بك فتثير فيك الشاعرية فتقول شيئا في مجلسه يتداوله الناس في ما بعد ليل الشراب :

« جارية مالجسمها روح
بالقلب منها تباريحُ
في كفها طاقة" تشير بها
لكل طيب من طيبها ريحُ
ساشرب الكأس عن أشارتها
ودمع عيني في الخد مسفوحُ !

وهكذا : يكون صاحب المجلس قد افلح في ما تخير فأرسل واحدة من جواريه لتقف حذاءك ، تبتسم ، تشير عليك ان تشرب وشربت ... انت تدون هذا في يوميتك هذه عن ان تلك الليلة التي كرست للأنس والشراب فتقول

« سأشرب الكأس عن اشارتها »

ولانها اشارت عليك ان تشرب يا ابا الطيب فقد شربت وربما حد الارتواء ... ولكن لماذا الواقع قليلا لماذا شربت ودمع عينك في الخد مسفوح ! ... يا ويح القافية وعجلة الارتجال ... والا" لولا ضرورة القافية لما بكيت فلم يكن الموقف موقف بكاء ... وانت لم تعشق امرأة منيعة ذات صون وعفاف حجبت عنك بل كانت طوع يديك وكان لك ان

تأخذها الى مخدعك يوم تريد هبة طيبة لقاء ابيات تقولها في مدح سيدها ...

فهل كانت الجارية ـ وهي جارية ـ مسنوعة عليك وقد دفعت دفعا للتحرش بك والامعان في اسقائك الشراب الى ان تسكر ...

ـ لقد كنت كذلك ... كانت رائعة الجمال ...

ـ وكان في وسعك ان تتخذها امرأة خاصة بك

ـ لم يكن ذلك في الامكان . كانت اثيرة سيدها

ـ اذن ... انت على حق ولكن لماذا بكيت وانت لم تبك في الغلاظ من الامور والجراح ؟ ...

ـ فتنة الشراب التي تضعف في الشارب جلده وصبره ...

ـ معقول ... وهذه الاخرى ماذا تقول بها فهي يومية مكرسة للصيد ، كنت مع « ابي العشائر » صاحبك الذي قلت فيه المحجلات من القصائد ، كنتما في ركب كبير للصيد فأرسل ابو العشائر بازيا لصيد حجلة فأخذها ، اي نالها البازي بمخلبه فأرتجلت تقول

« وطائـــرة تتبعهـــا المنايـــا
علـى آثارهـــا زجـل الجنـاحِ
كـأن الريش منـــه في ســـهامٍ
على جســـد تجسّـد من ريـاح
كـأن رؤوس اقـــلام غـــلاظ
مُســـحن بريش جوجئـه الصحاحِ
فأقعصـــها بحجـن تحـت صُـفرِ
لهـا فعـل الأسـنة والصـــفاحِ
فقلـت : لكل حي يومُ ســوءٍ
وان حرص النفـوس على الفـلاح

ـ نعم ، يا ابا الطيب فهكـذا هي الحيـاة وما من امـرىء يستطيع الانفلات من سوء يومه مهما امتد به الاجل وطال ...

وهكذا هي البازات مع الحجلات ، تصيد وتنشب فيها المخالب التي قلت انها فعل الأسنة والصفاح تفعل ذلك الى ان يأتي سوء يومها هي ايضا ولا ادري ما اذا كان ابو العشائر وهو يصغي الى هذا البيت في بازه وصيده قد طرب ومال ام انه ادرك ما اردت ان توحي اليه من ان الحياة زائلة ••• ولكل امرىء يوم سوء هو يومه ، هو اجله كأجل تلك الحجلة التي اطلق ليومها باز ابي العشائر في ابهة الخيلاء ••• فاي عذاب آن ترافقك النقمة على الأشياء حين تتواجه متقاربة معك بكل سوءاتها ورذائلها والامها ••• وهكذا عشت لانك قلت يقين ما تؤمن به ويقين مافي الحياة الانسانية :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وقد كان ابو العشائر وقد عاد بازه اليه بالحجلة يعيش بجهله وينعم بشقاوته فذكرته بمصير الحجلة في مخلب الباز

ــ لقد اوجعتني •••

ــ انت الذي تمس الجراح فتوجع يا ابا الطيب فأنت ومعك العقل والعقل في محنة الحصافة التي لا تقوى على اثبات وجودها • عشت الحياة الفكرية والسياسية ابان اشد الظروف قلقا •••

شهدت الانقسامات ، رأيت بغداد غير ما عرفت وسافرت الى الشام ، صعدت الى دمياط ، نزلت الى الفسطاط وبكيت متفردا في ليل العيد ، وانت بينك وبين احبتك البيد •••

فأنت الذي توجعنا يا ابا الطيب ، ان حياتك عظيمة وكبيرة لانك كنت صانعها وحياة العظام من ذوي الافهام حياة جديرة بهم ، خليقة بالمقام وانت كغيرك ، اهتموا بشعرك ، بقوته واصالته وجزالته ، شغلوا بما قلت من مديح استهجنوه او ذم استقبحوه لشدة وطأته ••• ولم يتناولوا حياتك الا قليلا في حين ان حكاية حياتك ، تلك المغامرة الشاسعة في ايامك المليئة بالكرب والطموح مثل الفلوات والمفازات التي جزتها وحيدا حزينا طامحا متوثبا ••• تلك الحياة التي بهرجها الشعر ظلت في ظل القصائد ••• ويوم

يفهمك الناس على نطاق اوسع واعمق سيعرفون اية حياة عريضة قد ملكت وذللت وانحسرت عنها بانكسار وايضا ببطولة الأستشهاد ...

ــ أأنت تودعني الى غيرما عودة يا صاحبي ؟

ــ ابدا ... ما من احد يودعك حتى يعود فيلتقيك

ــ اذن لماذا تنوح ؟ ... صوتك حزين ! ...

ــ لقد ذكرت امثالك ... ففي كل امة شهود اجرياء ، في كل عصر سيوف في صدور الاباة من الشعراء ... وآلى ان تشرق الشمس ...

ــ شمسنا مشرقة ابدا يا صاحبي ... ليلنا اقمار ، فلا تحزن لمسار طويل شققت به الآفات ... اقرأ مزيدا من شعري علنا نتوجه نحو واحة تنسينا الكرب الذي ضيق على صدورنا الخناق

ــ طيب يا ابا الطيب ... هذه اخرى ارجو أن يتسع صدرك لتكرارها فكثيرا ما كنت تضيق بما يلقى من شعرك أمامك ... ومولد هذا الشعر كان في مصر ولكنك لم تنشده لكافور ولم تذكره فيها ولهذا فان هذه القصيدة هي لك ، كما يغني المغني لنفسه احيانا اغلى ما لديه

« صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من شأنه ما عنانا
وتولّوا بغصة كلهم منه
وان سرّ بعضهم احيانا !
ربما تحسن الصنيع لياليه
ولكن تكدّر الاحسانا
وكأنا لم يرض فينا بريب
الدهر حتى اعانه من اعانا
كلما انبت الزمان قناة
ركبّ المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس اصغر من أن
تتعادى فيه وان تتفانى !

غـير أن الفتـى يـلاقي المنايـا
كالحـات ولا يـلاقي الهـوانا
ولـو أن الحيـاة تبقـى لحـي
لعـددنا اضـلنا الشـجعانا
واذا لـم يكـن من المـوت بـد
فمـن العجـز ان تكـون جبانا
كل مـا لم يكـن من الصعب في الانـ
ـفس سهل فيها اذا هو كانا ...

رعاك الله يا ابا الطيب فأي بيت من هذه القصيدة ليس قصيدة بذاتها، انها لمن اجلّ ما قلت في مصر ...

ولابد ان الغربة وما انزل بك موقف كافور من غم قد جعلك تحاور النفس ، تتحدث اليها في مرارة وكأنك وانت تكـدس امامهـا المواعـظ وتكشف لها عن حقيقة ما هو كائن وما سيكون عليه كل مامن هذه الحياة، انما تحاول في ذلك البحث عن تسلية محكمة ترد من خلالها لحظات الضعف والهزيمة ... ومع ذلك ايها الصديق العظيم لم تستطع ان تقهر الحزن ... انه طاف من حواليك سحابة مدلهمة لتاجأ الى مافي النفس الكبيرة من جلادة وكبرياء اجل ودون ريب

صـحب النـاس قبلنا ذا الزمـانا
وعناهـم من شـأنه مـا عنانـا

ولكن تلـك الصـحبة ... أكـانت صـحبة ما جـدة للعقـل او الرضـى بالخمـول والاتكـال ؟ سـتقول هـذا وذاك ومـا الحيـاة الا الحركـة تـحت وطـأة النقـائض ... ان الزمـان كالدهـر كأية تسـميات مجـزأة مـن ابديـة الوجـود ، فنحـن نعـرف الزمـان صلة لحدود الانسانية المتطورة مع الزمن ... واذا اردنا الصواب يا سيدي فان الناس الذين صحبوا الزمان هم الذين طوروا مافي مسيرة الزمـان ،

الوقت الطويل المرهف بلا حدود الا حــدود افكارنا المادية البحتة والا تواريخ المسيرة بسراحل لطياتنا البعيدة والآن من ذا الذي سيرك عبر الوهاد والنجاد الى مصر ••• لنتقف محزونا امام واحدة من تناقضات الصحبة لذاك الزمان •••

'انك تهتز لهذه الحقيقة لانها من بنات افكارك فانا لا اجيء بهـا من عندي واذ تبدو صخرة شاهقة تواجه اعتى مائي العواصـف تبدو ايضـا مهدودا تآكله السيل والمسيل الطويل ، فها انتذا تتراجع الى الداخل في مناشدة للسلم والموادعة وتسخيف العدوان في قصر هذه الحياة دعني يا سيدي المبجل ان اكرر عليك ما يؤكد هذا

« ومـــراد النفـــوس اصغر من أن
تتعـــادى فيـــه وان تتفـــانى ! »

فهذا التسخيف لمستلزمات حياتية كان ذا منزلـة في نفســك وانت تشد الرحال الى مصر ومعك قصائد في الركوة وفي الذاكرة لكافور مصر ، ترى تلك الغايات ومراد النفوس اتفه من ان تتعادى من اجلها تلك النفوس وان تتفانى •••

افهذه هي بواكير التبرير لعودة مخيبة فالمرء كثيرا ما يزهد تصنعا في مالا يحصل عليه وهذا ما جرى لك فأن مراد النفوس في الغالب نوافـل فما زاد عن زاد اليوم فضول ••• الم ترد ان تقول ذلك ! اذا صح هذا يا سيدي العظيم فماذا يبقى للمجد تصنعه التضحية من اجل تحقيق ــ مراد النفوس ــ !

ولكنها ساعة الحزن فمن يلمه الحزن في ردائه يتوجع دون شــكاة كبيرة متصنعا تحت وطأة الخيبة كبرياء جديدة من الزهد كأطار براق وهو هزيمة •••

ارجو الآن يلم بك الحزن فانا ارى وجهك يدلهم وكأن الحقيقة التي قلتها انا والتي تعرفها انت قد أثارت فيك الشجون ! •••

ـ نعم ، نعم . هذا صحيح وهل الاحاديث الا شجون ؟
ـ وشجونك انت بالذات !
ـ ولماذا انا بالذات ؟ ...

ـ لان شجون النفوس الكبيرة شجون ملهمة ، حكايات غاصة بالارادة الباهرة حتى في الهزيمة ...

ـ اقرأ المزيد ولكن هل يمكن ان تكون قصيدتي هذه من ضمن ـ يومياتي ـ

ـ دون ريب ، انها يومية مطولة بعض الشيء ومن اصدق ما دونت وما يدوّن المرء في رحلة التعب وقد اناخ راحلته طويلا وبدد من حواليه امانيه الطوال العراض ...

ـ نعم ... انت في هذا على حق ...

ـ اذن فسأقرأ المزيد لنؤكد معا قيمة الحوار الجديد مع مخلفات تلك الأيام وفي بعضها اروع ما تعطي العصور ...

وهذه اخرى ... ولكن اي اخرى ، مجاهرة مرة قبل ترك مصر الى سواد العراق ... انك تفتح سجل كافور على مصراعيه فالغضب يكشف العورات المستورات في الرضى ويضيف اليها ...

الآن ـ فما انك يومئذ ـ وانت غاضب تذكرت قدمي كافور وما فيهما من شقوق كما تقول روايات الرواة ... ولكني لا اصدق يا سيدي انك رأيت في قدمي كافور شقوقا ولكن ربما هو الخيال وقد تقهقر بك فتذكرت ماضيه ، جوالا حافيا في آفاق مصر والسودان ... والا كيف يمكن لكافور ملكا وقائدا ومحاربا أن يكشف للناس ضعفا فيه يمكن تداركه وما اكثر الجواري الحسان لغسله كل يوم وتطييبه بأفضل ما يرد الى ارض مصر من طيب ...

انك تبتسم لأنني قلت الحقيقة ، ان كافورا لم يكن مشقق القدمين من تراكم القذارة ، فان هذا اذا صح مع صعلوك مملوك فلا يصح مع ملك شديد البطش والقوة ، موفور المال والجاه ! ...

ــ اذن دعنا نسمع القصيدة ... اقرأ هـذه الابيات التي تسـميها يومياتي .. تفضل ..

ــ وهذا ما سأفعل ، انك تتململ وتغـير في مجلسـك ... ادفـع الوسادة نحو الجدار يستقم ظهرك ... ولنسمع القصيدة معا في كافور ، مشقق القدمين ...

« اريك الرضى لو اخفت النفس خافيا
وما انا عن نفسـي ، ولاعنك راضيـا

أمينـا واخـلافا وغـدرا وخسـة ؟!
وجبنا اشـخصا لحت لي ام مخازيا ؟!!

تظـن ابتسـاماتي رجـاءاً وغبطـةً
ومـا انـا الاّ ضـاحك“ من رجائيـا

وتعجبنـي رجـلاك في النعـل انـني
رأيتـك ذا نعـلٍ اذا كنـت حـافيا

وانـك لا تـدري الونـك اسـود“
من الجهـل ام قد صار ابيض صافيا !

ويذكرنـي تخييـط كعبـك شـقّه
ومشـيك في ثـوب من الـزيت عاريـا

ولـولا فضـول النـاس جئتـك مادحا
بمـا كنت في سـري بـه لك هـاجيا

فأصبحتَ مسـرورا بمـا انـا منشـد“
وان كـان بالانشـاد هجـوك غاليـا

فـأن كنـت لا خـيراً افـدت فانـني
افـدتُ بلحظـي مشـفريك الملاهيـا

ومثـلك يؤتـى من بـلاد بعيـدة
ليضـحك ربـات الحـداد البـواكيا

وما من شك ••• مطلقا في ان هذه القصيدة هي بنت سورة من سورات الغضب ••• غضب المغلوب على امره وهو لا يملك غير الشتيمة ••• ومهارتك الفذة تجعل حتى هذه الشتيمة المرة وثيقة اكبر من وثيقة شعرية رمزية لحياة رجل •••

الم اقل يا سيدي قبل قليل انك لم تر شقوقا في رجلي كافور فما يسكن لملك مثل كافور يتخذ الصدارة في المجلس والعيون شاخصة اليه ان يواجه الناس بقدمين مشقوقتين ••• وانما هي صور الماضي التي من الممكن انه كان عليها في ما مضى ••• اما عند مواجهتك له فكافور ملك ••• اخشيدي مرهب وقد قطع كل علاقة بصور ماضيه ••• دعني اذكرك بأن هذه الصورة لرجليه الحافيتين المشققتين من خيال التصور فلقد قلت قبل قليل :

« ويذكرني تخييط كعبك شقه
ومشيك في ثوب من الزيت عاريا

ان الصورة قد جاءت من الماضي ••• فلقد تذكرت حفاه وعريه مدهوناً بثوب من الزيت ••• ولكن مهما كان كافور ملكا او صعلوكا فلقد وسّعت له مكانا في التاريخ مع ان طغاة اخرين قد سبقوه او تأخروا عنه لم تحفظ لهم الذاكرة ذكرا ••• وهذه هي فضيلتك على كافور ممدوحا ومشتوما الى جانب ان شعرك في كافور يمكن ان يعتبر وثيقة تاريخية فلقد دونت عن معاصريك كل ما وجدت فيهم من بوارز الخلق وجميل السجايا او دناياها ••• وليس هذا بالشيء القليل لمن يدرس تلك الحقبة التي تلاقي فيها رجلان على صعيد مصر ••• القادم من نوبة السودان والقادم من كوفة العراق ، ارض السواد ••• والحياة في عطائها سجال كالمعارك ••• وهل أيامنا حتى امجد ما نزهو به الآن ما يتحرك بين التناقضات كرا وفرا للظفر بامانينا •••

وانت من خلال تلك الحقبة من زمن الثراء والبؤس والحرية والعبودية واجهت انسانين على طرفي نقيض الا" في سدة الملك ...

الاول سيف الدولة ملكا على حلب وما حواليها وسيفه راية بيضاء مضرجة بدم الاعداء ... وكافور ملكا على وادي النيل ... له سيف مرهف هو الآخر ، يفهم الشعر اولا يفهمه فقد قيلت فيه غرر القصائد وكان آلمعها قصائدك انت يا ابا الطيب ... واذا كان سيّئا او ضنينا بالجائزة فذلك لا يعني جهله بل خسته في حب المال وحبسه عن الشعراء على غير ما جرى عليه صاحبك في حلب وهو يجزل العطاء لمادحيه ...

ومهما كان الأمر فأن كافورا ، النقيض في معركتك لصديقك سيف الدولة لم يكن غبيا ولا جاهلا بالمرة والا" كيف ساد وطالت سيادته وعرفت في الحروب وفي الادارة حنكته ...

دليلي على ذلك يا صاحبي انك انت نفسك اعطيته واحدة من اغلى الصفات فسميته « استاذا » وتجاوزت سحنته وما هي بمعيبة فلا فضل لأمريء باللون وانت تعرف ذلك ...

فاذا كان كافور « استاذا » بشعر قلته فيه في الرضى فيجب ان يكون الأمر كذلك مهما كانت عين الرضى كليلة ... دعنا نرجع الى قصيدتك الذالية في مديحه

« أساور ام قرن شمس هذا ؟ ...
ام ليث غاب يقدمُ الاستاذا ؟
شم ما انتضيت فقد تركت ذبابه
قطعا وقد ترك العباد جذاذا

ولنقفز قليلا ... لنصل الخاتمة :

« لم يلق قبلك من اذا اختلف القنا
جعل الطعان من الطعان ملاذا !!

من لا توافقــه الحيــاة وطيبهــا
حتى يوافــق عزمــه الأنفــاذا ...
متعــودا لبس الــدروع يخالهــا
في البرد خزا والهــواجر لاذا ...
اعجب بأخذكــه واعجب منكمــا
ان لا تكــون لمثلــه اخـّاذا ...
لقد بدأت تمتعض ! ...

لقد بدأت تمتعض ! ... انني اعرف سحنة النفور فيك ، تقطب لان كلمتك في الاشياء كانت ابدا كالسيف الجراز هي القاطعة اولا ... وعلى كل حال فأن كافورا وهو ملك ، وهو صعلوك شيء واحــد ... انســان عصره في تقلب الاشياء عندما ... ولا اريد يا سيدي ان امنح كافورا هذا تقرر النقائض في حركتها الجدلية تقرير الشيء الجدير الاكثر متانة وتطورا فضلا على حساب التقليل من فضلك عليه وعلينا من خلال الالف ونيف من الاعوام مذقلت فيه وفي سواه ما قلت ...

انك تنهض يا سيدي ، هل اثقلت عليك !
ـ انما اتأهب ...
ـ الى أين يا ابا المحسـّد ...
ـ الى بلاد فارس ... الى بلاد العرب عند الخليج فهناك عرب اقحاح وسادة امجاد يفهمون الفضل للفاضل ...
ـ ومعك المحسـّد ؟ ...
ـ سيتعلم الكثير ... سيحصل على خيول اصيلة من هناك ايضا ...
ـ وستمر بالاحواز ؟ ...
ـ نعم ، وصعدا منها الى الاعلى ... سأقول شيئا في فلان وفلان... وارجع قبل ان تعتل صحتي ...
ـ لست مسنا بعد يا ابا المحسـّد فأنت في اقل من الخمســين ... ومثلك يعدون انفسهم شبابا ...

ـ كفاني ما لقيت •••

ـ ومن عرف الدنيا •••

لا ، لم اقل الدنيا ، انها كبيرة على الناس ، انما قلت

ومن عرف الأيام معرفتي بها
وبالناس روّى رمحه غير راحم

ـ نعم ••• قلت هذا •••

ـ اسمح لي اذن برحلة المغادرة

ـ سنلتقي يا ابا الطيب ••• في العودة لابد ان نلتقي صحيح ان قصائدك ستصل الجزيرة قبل عودتك الا انني اريد ان اصغي اليك ، أتحدث اليك •••

ـ ولكن من يدري ! •••

ـ التاريخ يدري •••

ـ وما شأن رحلتي الى فارس بالتاريخ ؟ •••

ـ التاريخ هو الذي يعرف قيمتها •••

ـ تعال اذن بعد هذه الصحبة الطيبة ان نمشي قليلا في ارجاء الكوفة •••

ـ نشرب النهر فراتا يا ابا الطيب •••

ـ لطالما شربنا ••• وها نحن في مغرب الشمس اوصائل الامسيات سواد النخيل •••

ـ وخبب الجياد ، عائدة من المزارع والحقول •••

ـ والليالي دواوين !

ـ والدواوين قصائد •••

ـ وديوانك يا ابا الطيب اعلاها طنبا ، امجدها ظلا

ـ الشكر لك •••

ـ انما هو لك ، لقد اعطيت الامة العربية تراثا مجيدا لا يبلى ••• لقد مر تراثك بتجربة طويلة فوضعت اجيال عديدة ثقلها عليه ••• وها انذا معك ومعها بعد ألف ونيف من الاعوام

ـ لقد بدأت ظلمة المساء تنزل ، تعال معي الى داري نأكل شيئا •••

ـ كل ما تأكل بالعافية •••

ـ اذن مع السلامة •••

ـ رافقتك السلامة •••

ـ انما اريدها لك لأنك مسافر •••

وسافر المتنبي الى بلاد العرب على الخليج مارا بالاحواز ، صاعدا الى بعيد ••• وعاد بعد مكث طويلا ملىء الوطاب لتتصدى له الفئة القاتلة تسرق منه جهد الفكر والعذاب •••

لقد ذاد بطلا عن اثنين ، عن الكرامة والمال ••• فدفع المال والولد والخدم الى الغناء ليكتب لنفسه ملحمة الكرامة ، كأغلى ما ترك من تراث •••

ومن اجل هذا ظل شامخا ، وظلت حياته هي الاخرى بطولة متسلسلة من أيام اليتم والبؤس الى أيام المجد والعظمة والرخاء ••• الى رحلة الموت وهل مات نسر في الحضيض ! •••

وداعا •••

عبدالمجيد لطفي

ملاحظة

لقد كتب هذا الحديث في خريف وشتاء سنة ١٩٧٦ في بغداد

الفهـرس

تصميم الغلاف : بدروس بدروسيان
الخطوط : رضا الخطاط
التصميم الداخلي : عبدالحافظ جاسم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
١٠٣٤ لسنة ١٩٧٧

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م

الجمهورية العراقية
وزارة الإعلام
بغداد

دار الحرية للطباعة
١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

السعر ١٠٠ فلس

توزيع الدار الوطنية للنشر والتوزيع والإعلان